سلسلة الفكر الرسالي

التحولات الحضارية
والبنية الثقافية عند بني إسرائيل

سماحة العلامة الشيخ علي هلال الصيود

سلسلة الفكر الرسالي

التحولات الحضارية
والبنية الثقافية عند بني إسرائيل

سماحة الشيخ علي هلال الصيود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ الستينيات من القرن المنصرم والفكر الرسالي يواصل عطاءآته في ساحة الفكر، وقد ساهم هذا الفكر في طريق نهضة الأمة، من خلال آلياته ومصادره الإسلامية الأصيلة المتمثلة في كتاب الله العزيز، وسنة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وآله الأطهار عليهم السلام، والعقل المسترشد بهديهم النيّر. وقد تبلور الفكر الرسالي في مدرسة رسالية راسخة في التجربة، واسعة في العطاء، للكثير من الجوانب التي اهتمت بها.

وتحولها إلى مدرسة فكرية رائدة يعني أنها تناولت وعالجت العديد من جوانب الحياة التي تصوغ حياة الإنسان كنظام حياة، فكان لها العطاء في الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية المختلفة.

ولأننا نؤمن بأن الفكر الرسالي قد قدم نظرياته وإسهاماته المعبّرة عن الروح النابضة والناهضة للإسلام ـ الذي أراده الله أن يقود الحياة – فإننا نقوم في هذه السلسلة من الإصدارات (سلسلة الفكر الرسالي)، باستظهار بعض إسهامات الفكر الرسالي وقراءاته، من خلال إسهامات مداد رجالاته، كبعث جديد، أملاً في أن يأخذ الفكر الرسالي موقعه الريادي في حياة الأمة، واكتشاف جوانبه المشرقة.

سلسلة الفكر الرسالي

هذه الدراسة

أهمية دراسة التاريخ البشري تكمن في أن مستقبل الأمم هو انعكاس لمؤثرات التاريخ من جهة، كما أن التاريخ يحمل في طياته سنن اجتماعية ثابتة، تجري في كل المجتمعات البشرية، وذلك راجع إلى التكوين البشري واتحاد نوازعه، وقد أكدّ القرآن الكريم على هذه الحقيقة بقوله: ﴿**سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً**﴾[1].

وقد كان في طيات كتاب الله المجيد العديد من التجارب البشرية التي مرّت على الأمم السالفة، كي تعتبر منها الأمم التالية على مر العصور، وإن لبني إسرائيل مساحة كبيرة من السرد في آيات القرآن الكريم، تحكي تجاربهم مع رسالة الله تعالى التي أرسلها لهم عبر نبيه موسى عليه السلام، وحيث أن أمتنا الإسلامية هي خاتمة الأمم الرسالية، فهي بحاجة ماسّة إلى أن تدرس تجربة بني إسرائيل كي تتخطى الإخفاقات التي أخفقت فيها، وتحولت بسببها من أفضل الأمم إلى أدنى الأمم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن وجه المشابهة بين الأمة الإسلامية وبين بني إسرائيل: (**يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّ مَا كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ**) [2].

١- سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.
٢- من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٣، للشيخ الصدوق.

وفي هذه الدراسة يقدّم سماحة الشيخ علي هلال الصيود، الجوانب المضيئة التي كانت لدى بني إسرائيل، وجوانب الإخفاقات، من خلال دراسة التحديات التي واجهتهم، وكيف تعاملوا معها، مستخرجاً الأسباب والنتائج، ومستلهماً الدروس والعبر الحضارية لتساهم في رقي الأمة الإسلامية وتقدّمها حضارياً، عبر ثلاثة فصول، هي: (**قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل**)، و(**بنو إسرائيل ونزعة التجسيم**)، و(**بنو إسرائيل ومشروع الحرية**).

قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل[1]

توسع القرآن الحكيم في حديثه عن بني إسرائيل، واستعرض إنجازاتهم وإخفاقاتهم، ورصد لنا المسيرة الحضارية وما اعتراها من علل وأمراض أسهمت في أفول نجمهم.

فقد نص القرآن الحكيم على تفضيل بني إسرائيل على العالمين ـ في زمانهم ـ ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[2].

فما الذي حدا ببني إسرائيل وساقهم إلى الخسف فجعل منهم القردة ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[3].

وما الذي جرّهم إلى تعدي حدود الله تعالى: ﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[4].

١- دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: «التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية» المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

٢- سورة البقرة، آية/ ٤٧.

٣- سورة البقرة، آية/ ٦٥ـ٦٦.

٤- سورة النساء، آية/ ١٦١.

فكانت المحصلة النهائية الطرد واللعن: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[1]. فبعد تربعهم على كرسي التفضيل والتكريم وبعد أن أطعمتهم يد السماء من خيراتها وبركاتها: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

فحرّي بنا أن نتتبع ونرصد الإخفاقات والتحولات التي رافقت مسيرة هذه الأمة، ولماذا فقدت هذه الأمة أهليتها في القيادة الدينية؟

بعد أن كانت الأمة المُستخلفة والحافظة لدين الله ورسالته: ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3]. ولعل في ذيل الآية ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ إيماء لما ستصاب به هذه الأمة من انتكاسات تحرفها عن مسيرتها الربانية.

وليكن رائدنا في دراسة أحوالهم وقصصهم هو الاعتبار: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[4]، هذا المصطلح الذي أسسه القرآن الحكيم، وخلاصته أن لا نكتفِ في دراسة الأمم والشعوب والأحداث التي عصفت بها والتحولات التي ألمت بها، بسطحها وظاهرها، بل نعبر من ظواهر الأحداث إلى جوهر الحقائق

١- سورة المائدة، آية/ ١٣.
٢- سورة البقرة، آية/ ٥٧.
٣- سورة الأعراف، آية/ ١٢٩.
٤- سورة يوسف، آية/ ١١١.

وبتعبير آخر أن نلتقي مع القوانين والسنن التي حكمت مسيرة الأمم والشعوب.

ولعل التناسب في الأدوار والمهام بين الأمة الإسلامية وأمة بني إسرائيل هو الذي جعلها تنال حظاً كبيراً وقسطاً وافراً في القرآن الحكيم.

حين تدرس الأمة الإسلامية إخفاقات بني إسرائيل وعللهم وتسعى جاهدة أن تتجنب سقطاتهم.

هذا بالإضافة إلى أن دور الشهادة والتصدي لشأن الرسالة نقل من بني إسرائيل إلى هذه الأمة كما سوف نتبين في مطاوي البحث.

وقبل الحديث عن التحولات الكبرى في مسيرة بني إسرائيل نذكر مجموعة من الحقائق:

١ ـ التأثير المتبادل: التحول والتغيير في أي مجال من مجالات الحياة يلقي بظلاله على الأبعاد الأخرى.

فالتحول في الأفكار والتصورات يستتبع تحولات وتغييرات كبيرة على صعيد الاجتماع والاقتصاد، ولا ينحصر تأثيرها في حدود المبادئ والقيم: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ**﴾[1]. فالآية المباركة تربط التحولات الاقتصادية والمعيشية وترهنها بمدى حدوث التغيير في الأفكار والمبادئ

١ – سورة المائدة، آية/ ٦٦.

والتصورات: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾، كما أن التحولات الاقتصادية تؤثر بشكل أو بآخر على مسيرة القيم والمبادئ والتصورات، ولعل ما ساقه القرآن الحكيم من قصة ذلك الرجل الذي أعطى المواثيق المغلظة أن يبقى وفياً لمبادئه وقيمه مهما حدث له من تحولات اقتصادية ومعيشية على وضعه، ولكنه بمجرد أن تذوق طعم النعيم وعاش عيشة الأغنياء نكص على كل المبادئ والقيم والتصورات التي يحملها: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّآ آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[1].

فهذا مثال واضح لتأثير الأوضاع الاقتصادية والمعيشية وإحداثها تحولات كبرى على صعيد الأفكار والمعتقدات.

وهذه البصيرة (التأثير المتبادل) نستفيد منها عند دراسة التحولات عند بني إسرائيل، وجذر كافة التحولات الأساسية التي اجتازها بنو إسرائيل.

٢ـ نعى القرآن الحكيم على الكثير من الأمم سكونهم ورفضهم لكل محاولات التجديد والإصلاح وتمسكهم بإرث الأجداد والآباء: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2]. وهو في ذات الوقت نعى التحولات والتغييرات التي لم تسطبغ بلون الفطرة ولم تهتدي

١- سورة التوبة، آية/ ٧٥-٧٧.
٢- سورة الزخرف، آية/ ٢٣.

ببينات الرسالة، كما حدث للكثير من الأمم والشعوب وعلى رأسهم أمة بني إسرائيل.

من هنا يؤسس القرآن للاجتماع المعياري والقيمي، فليست القضية في التحول والتغيير والسكون والركود بل القضية هي في قيم التحول ومبادئه، وقيم السكون ومبادئه، فالنظرة المعيارية هي الحاكمة، فلا ينظر القرآن إلى كل التحولات الحضارية بعين الإكبار والإجلال، كما لا يزدري ويحتقر كل حالات البقاء والمحافظة على المكتسبات والموروثات، فالمهم هي صبغة هذه التحولات ووجهتها، ولذا أشاد القرآن الحكيم بالتحول الكبير الذي أوقف مسيرة الدمار عن قوم يونس عليه السلام: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾[1]. وأدان بشدة التحولات السلبية التي انتابت بني إسرائيل في مسيرتهم الحضارية.

١- سورة يونس، آية/ ٩٨.

التحولات الكبرى عند بني إسرائيل
بين ألواح موسى عليه السلام وعجل السامري:

خاض بنو إسرائيل اختباراً صعباً بعد غياب نبي الله موسى عليه السلام، لتلقي التعاليم الإلهية، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ألواح موسى عليه السلام وما فيها من الهدى والبينات، إلاّ أنهم وبسبب ما انتابهم من الوهن والضعف استجابوا لأباطيل السامري، فانتقلوا بين عشية وضحاها من عبادة الله إلى عبادة العجل.

هذا مع علمهم بوجود الممثل الشرعي لموسى عليه السلام وهو هارون عليه السلام، إلا أن قوى الانحراف والشرك تعاضدت لإقصائه عن القيادة والزعامة وقد كان الثمن الذي دفعه بنو إسرائيل لتجاوز هذه الانعطافة في مسيرتهم الحضارية كبيراً جداً. فقد أمروا أن يقتلوا أنفسهم حتى يتطهر هذا الجيل من الشرك والطغيان، ولا تحمل الأجيال الناشئة معها رواسب الجاهلية والشرك، وحتى لا يستعاض بألواح موسى عليه السلام عجل السامري: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[1].

وهكذا يستغل الانتهازيون فُرص غياب القيادات أو تغييبها فيلقون بحبالهم ليصطادوا بها أصحاب القلوب المريضة والنفوس الضعيفة.

١- سورة البقرة، آية/ ٥٤.

بين هدى الكتاب وأوهام السحر:

المنعطف الثاني في سيرة بني إسرائيل هو إيثارهم تعاليم السحر والشعوذة على كتاب الله. فأي أمة هي بحاجة إلى رؤية وبصيرة تحدد لها طبيعة العلاقة التي تشيدها مع كل مفردات هذا الوجود.

وقد عاش بنو إسرائيل دهراً من الزمان منتفعين بكتاب الله تعالى، فهو الذي يرسم لهم التصورات الكبرى لهذا الوجود ويحدد لهم طبيعة العلاقة مع كافة المخلوقات والموجودات.

وهو الذي يرسم لهم طريق الرفاه، وهو الذي يسن لهم الشرائع والقوانين التي تكفل لهم العيش الرغيد.

ولكنهم سرعان ما لهثوا خلف فلسفة ورؤية لا تمت للواقع بصلة، فتمسكوا بأوهام السحر والشعوذة عوضا عن البينات والهدى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[1].
الآية المباركة تقرر لنا حقيقة لا يمكن الحياد عنها، وهي أن الأمم لا

١- سورة البقرة، آية/ ١٠١ـ ١٠٢.

يمكنها أن تعيش بدون فلسفة ورؤية ترسم لها خريطة الحياة وتحدد علاقاتها وعندما تنبذ الأمة بصائر الدين لا بد أن تلهث خلف سراب الثقافات الأخرى، وإن كانت سحراً وشعوذة.. «بعد مرحلة القوة جاءت مرحلة الضعف في بني إسرائيل، وبعدها كانت العنصرية ومن ثم تأتي مرحلة الخرافة المتمثلة في السحر والشعوذة، حيث أن الأمة العنصرية تنغلق على ذاتها: ﴿**وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾[1]. وتبتعد عن توجيهات الله وعن سنن التاريخ وتجارب الناس وتستكبر على الحق وليس أمامها بعدئذ إلا الهبوط إلى حضيض السحر والشعوذة، فيتناول القرآن الحكيم هذه المرحلة بإيجاز فيبدأ بالحديث عن ترك بني إسرائيل للكتاب ليبن الله أنه السبب في تشبثهم بالسحر، لأن من لا يمتلك تفسيراً صحيحاً للحياة ورؤية علمية إلى أهدافها، يضطر إلى البحث عن تفسيرات غيبية ورؤى باطلة، وحيث يتحدث عن السحر يبين القرآن قصة مختلقه من بني إسرائيل تزعم أن السحر من الله، وينتهي الحديث ببيان أن التمسك بالكتاب أفضل لهم من التشبث بالسحر».

«وبسبب هذا النبذ وجد فراغ ثقافي في حياتهم فالتفتوا إلى السحر والشعوذة والأفكار الغيبية الباطلة، فلم يجدوها إلا عند الشياطين: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾[2]، ذلك أن سليمان عليه السلام كان نبياً من بني إسرائيل وملكا، وكانت الشياطين تخدمه، وقد خلفت وراءها مجموعة من الأفكار الباطلة، وهؤلاء

١- سورة البقرة، آية/ ٨٨.
٢- سورة البقرة، آية/ ١٠٢.

تركوا الكتاب وأخذوا بأفكار الشياطين، وهذه نهاية العنصرية أنّها لا تفرق بين الأفكار الصحيحة التي يأتي بها نبي مرسل من الله، والمشكلة أنهم قالوا ما دامت هذه الأفكار من بنات فكر الشياطين الذين كانوا حول سليمان، وما دام سليمان نبي الله، فإذا هذه الأفكار هي من الله»[1].

عصيان الأوامر والتيه:

التحول الآخر الذي أثر في مسيرة بني إسرائيل هو امتناعهم من اقتحام الأرض المقدسة، ورفضهم للانقياد للأوامر الربانية، وقد كلفهم ذلك هلاك جيل بأكمله في التيه، حتى يتسنى للجيل اللاحق أن يدخل الأرض المقدسة وقد تطهر من كل عوامل الجبن والخوف، لأنّه لا مكان في رسالة السماء للأمة التي تهاب الموت وتخشى الجهاد.

قال تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾[2].

١- المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، من هدى القرآن، .
٢- سورة المائدة، آية/ ٢١-٢٦.

التحول الأخطر:

رغم كل تلك الإخفاقات والتحولات في مسيرة بني إسرائيل، إلاّ أن الأمل كان يحدوها لتنهض من كبوتها، وتعاود من جديد دور الريادة الذي أنيط بها.

إلاّ أن التحول الأخطر في المسيرة الحضارية لبني إسرائيل، والذي أفقدها دور الريادة وزوى عنها مسؤولية الشهادة، تتمثل في جفاف الروح وتيبسها وعدم القدرة للإفادة من معارف الدين وتعاليمه.

وقد عبرت مجموعة من الآيات عن هذا المعنى كقوله تعالى: **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ من خَشْيَةِ الله وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[2].

إن دخول بني إسرائيل في نفق التكذيب بالرسالات والقيم كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الرسالة عن سمائهم، فقد شكلت هذه المرحلة عدم القدرة للإفادة من مكتسبات الرسالة وهداها، وبدخولهم هذه المرحلة بدأت نوعية جديدة في التعاطي مع رسالاتهم وقياداتهم.

١- سورة البقرة، آية/ ٧٤.
٢- سورة الجمعة، آية/ ٥.

فتحولت حياتهم إلى مجموعة من القشور يحاولوا أن يتمسكوا بها بعد أن ضيعوا جوهر الدين ومبادئه، فشاعت عندهم رسالة الأماني والأحلام: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

واتكأوا على أمجاد التاريخ علّها تعوضهم عما اقترفوه من تضييع الرسالة فدخلوا في سجال طويل مع نظرائهم بإدعاء إن إبراهيم عليه السلام كان من رجالاتهم وقادتهم، وهذه عادة الأمم التي لا تنتفع بالرسالة ولا تطيع الرسل والأنبياء عليهم السلام، فتتنازع على الأسماء والألقاب ومدى قربها وبعدها عنهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوراَةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وبلغ بهم الإسفاف أن أدعوا القرب من رب العالمين: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءَ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3].

١- سورة البقرة، آية/ ١١١-١١٢.
٢- سورة آل عمران، آية/ ٦٥-٦٨.
٣- سورة المائدة، آية/ ١٨.

هذا هو حال الأمم والشعوب المتمردة على قيمها ومبادئها، فإنها تستعيض عن ذلك من خلال تسمكها بالقشور والرتوش بدل أن تتحمل مسؤوليتها فتنتفع من رسالتها.

وبكلمة؛ لا نجد سببا وراء تمسكهم بالأماني وعيشهم على أمجاد الأنبياء عليهم السلام وادعائهم القرب من رب العالمين، إلا التملص من المسؤولية، وأنهم معفون من الحساب والكتاب، وهم إن دخلوا النار فإنما هي أيام معدودة: ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[1].

الدواعي والأسباب

لم يكن نشوء حالة الجفاف الروحي مصادفةً، بل لأسباب ودواعي أهمها:

١ـ الميوعة في الالتزام بالتعاليم والأحكام الشرعية:

فقد جاءت الآية المباركة: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، بعد ثلاث قصص:

قصة الطور: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ**

١- سورة البقرة، آية/ ٨١.

﴿مَآ آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

قصة السبت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2].

قصة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾[3].

وهذه الأحداث والقصص الثلاث تعكس لنا صورة الميوعة في الالتزام التي ساقتهم إلى الالتفاف على الأحكام الشرعية.

إن هذه الحالة هي التي أورثتهم الجفاف الروحي وعدم القدرة للانتفاع من الرسالات السماوية.

٢ - نقض المواثيق الربَّانية:

١- سورة البقرة، آية/ ٦٣-٦٤.
٢- سورة البقرة، آية/ ٦٥.
٣- سورة البقرة، آية/ ٦٧-٧١.

لكل أمة ميثاقها وعهدها مع الله سبحانه وتعالى، فإذا حافظت ورعت الأمة ميثاقها وصانته من أيدي العابثين فهو الضمانة الأساسية لبقاء حالة التفاعل الوجداني والقلبي مع الرسالة والإفادة من نميرها العذب.

أمّا إذا نقضت عهدها مع الله، سلبها الله أعز ما تملك وهو روحها ووجدانها: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1].

وقد تضمن الميثاق مجموعة كبيرة من التعاليم الاجتماعية التي تنظم حياة المجتمع بالإضافة إلى الأحكام العبادية التي ترسم الطريقة المثلى للعلاقة مع الله.

فقبل هذه الآية يذكرنا القرآن ببعض بنود الميثاق الذي انتهكوه: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ**﴾[2].

وفي سورة البقرة عرضت بعض بنود هذا الميثاق: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ**

١- سورة المائدة، آية/ ١٣.
٢- سورة المائدة، آية/ ١٢.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[1].

إلاّ أنهم تجاوزوا هذه الحدود ونقضوا بنود الميثاق مما أعقبهم حالة الجفاف الروحي: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

التحولات النفسية أرضية التحولات الفكرية:

خلافا لما يتصوره البعض من إرجاع كافة التحولات والتغييرات الاجتماعية إلى الفكر والثقافة، فالقرآن الحكيم يضع أيدينا هنا على منبع آخر لحالات التحول والتغيير الاجتماعي ولا يقصرها على عامل الفكر والثقافة كمصدر وحيد.

فالتحولات الاجتماعية والفكرية التي انتابت بني إسرائيل وتنكبت بهم طريق الهدى كان منبعها جفاف الروح وموت القلب وفراغ الوجدان.

فالتحريف والتبديل والكتمان واللبس وغيرها من التحولات الثقافية والاجتماعية كان جذرها هو التحول النفسي.

فالقرآن الحكيم عندما يذكرنا بدخول بني إسرائيل في القسوة

١- سورة البقرة، آية/ ٨٤.

٢- سورة البقرة، آية/ ٨٥.

والجفاف يهدينا إلى أنّه السبب الذي ساقهم إلى التحريف والتأويل، وهو ... : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقد صرح القرآن الحكيم في سورة آل عمران أن حركة التأويل غالباً ما تنطلق من النفوس الضعيفة إشباعاً لرغباتهم وأهوائهم: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[3].

من هنا ندرك أن التحولات الاجتماعية والثقافية التي عصفت بمجتمعاتنا ليست دائماً منبعها القناعة الفكرية، بل هي في كثير من الأحيان مصدرها الخواء الروحي والضعف النفسي لدى الأجيال الناشئة، فعلى المهتمين بشؤون التربية والتوجيه أن يزيدوا من جرعات

١- سورة المائدة، آية/ ١٣.
٢- سورة البقرة، آية/ ٧٥-٧٦.
٣- سورة آل عمران، آية/ ٧.

الروح والقلب لإحداث التوازن في نفوس أجيالنا.

سورة الجمعة ميلاد أمة، وموت أخرى

إذا صح لنا أن نصور ونشبّه، فإن سورة الجمعة قد أجرت مراسيم انتقال الشهادة والخلافة من أمة بني إسرائيل إلى الأمة الإسلامية.

وقد تم التركيز فيها على مجموعة من المحاور:

١ ـ التحولات الإيجابية الكبرى استجابت لها الأمة المسلمة وساهمت بنقلها وإخراجها من الظلمات إلى النور: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾[1]. ولعل في تعبير ﴿لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾، ظلال للتحول الكبير الذي ساق هذه الأمة فأخرجها من سباتها وغفلتها لتتشرف بحمل رسالة السماء، وكان رائدها في هذا التحول هو (التزكية والتعليم والحكمة)، ولعلّ الابتداء بالتزكية إشارة إلى حجم التحولات النفسية ودورها الكبير في تأهيل الأمة لحمل رسالة السماء، وهو العنصر الذي افتقدته أمة بني إسرائيل، فعطل عندها الإفادة من رسالة السماء.

٢ ـ إنّ الرسالة فضل ورحمة، فلا مجال فيها للأنساب والألقاب والأمجاد، فالأمة التي توفر في نفسها مؤهلات الشهادة والريادة (التزكية + التعليم + الحكمة) هي وحدها المؤهلة لحمل رسالة السماء:

١ - سورة الجمعة، آية/ ٢.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1].

ولذا رفض القرآن كل المحاولات لتوزيع الرسالة وتقسيمها، وإنزالها على أساس الأنساب والأمجاد: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[3].

٣ـ كشفت السورة عن العامل الأساسي لنقل الرسالة من أمة بني إسرائيل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

وياله من تصوير رائع للحالة التي وصلت إليها أمة بني إسرائيل فأفقدتها دورها وريادتها أرأيت الحمار لو وضعت عليه أطناناً من الكتب أكان ينتفع بها، هكذا وصل الحال بهذه الأمة فلم تعد تنتفع بالرسالة الإلهية لجفاف روحها وتوقف قلبها فكان نصيبها أن تُزْوى الرسالة عنها إلى من يتحمل مسوؤليتها وينتفع بهداها.

الأمة الإسلامية ومحاولة النكوص

حذر القرآن الحكيم الأمة الإسلامية أن تسلك مسلك أمة

١- سورة الجمعة، آية/ ٤.
٢- سورة الزخرف، آية/ ٣٢.
٣- سورة النساء، آية/ ٥٤.
٤- سورة الجمعة، آية/ ٥.

بني إسرائيل فتقع فريسة القسوة والجفاف الروحي فتنكص عن مبادئها وقيمها: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[1]..

١ - سورة الحديد، آية/ ١٦.

نزعة التجسيم عند بني إسرائيل

سلك القرآن الحكيم مسلكاً مختلفاً عن المدارس الكلامية والفلسفية في عرض قضايا العقيدة والإيمان. فأسس منهجه انطلاقاً من كتاب الكون، وكتاب النفس، وكتاب التاريخ.

فمن خلال هذه الكتب الثلاثة استعرض أعقد المسائل العقائدية وعالجها. فهو تارة يفتح عقل الإنسان وقلبه على حقائق الحياة من خلال هذه الأدوات الثلاث كما في سورة الروم وسورة الشمس. فسورة الشمس استهلّها بكتاب الكون وضرورة التأمل في ظواهره ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**﴾[1].

وثنى بكتاب النفس: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[2].

وختمها بكتاب التاريخ: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا**﴾[3].

١- سورة الشمس، آية ١ - ٦.
٢- سورة الشمس، آية ٧ - ١٠.
٣- سورة الشمس، آية ١١ - ١٥.

وتارة أخرى يقتصر اعتماده على كتاب واحد أو كتابين، كما في سورة الطارق[1]، وكل كذلك انسجاماً وما يتناسب مع طبيعة الموضوع الذي يُراد بحثه وتقديمه للناس.

كتاب التاريخ

شكلت القصص التاريخية وحياة الأمم والشعوب الماضية مساحة كبرى في القرآن الحكيم، وعالج القرآن من خلالها كافة الأمراض والعلل والإشكالات التي تعترض مسيرة الأمم والشعوب.

والأهم من كل ذلك أن القرآن الحكيم نقل الإنسان المسلم نقلة نوعية، في عدة أبعاد:

الأول: تثبيت كتاب التاريخ كنافذة يطل من خلالها المسلم على حياة الأمم والشعوب، ودراسة أحوالها.

الثاني: القراءة الواعية لأحداث التاريخ وقصصه.

الثالث: تزويد المسلم بأدوات قراءة التاريخ.

فقد كانت العرب تستمع إلى قصص الماضي ولكنها تفقد البوصلة التي من خلالها تقرأ حياتهم وسيرتهم، إلى أن جاء القرآن ووضع بين أيديهم الأدوات الأساسية لقراءة التاريخ: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي**

١- افتتحت السورة بكتاب الكون ﴿وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، وثنت بكتاب النفس ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ومن خلال هذين الكتابين دعا الإنسان للاعتقاد بالمعاد ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ* يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ*وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ﴾.

قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1]، **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾**[2]، (السير، العبور، النظر) كلها مفاهيم أسسها الذكر الحكيم، ومن خلالها نقل تفكير العرب إلى مستوى راقٍ من التعاطي مع قصص الماضين وحياتهم.

ونحن اليوم بحاجة إلى تفعيل هذه الأدوات التي أرسى دعائمها القرآن الحكيم. فقد عُطل مفهوم السير عند الكثير من المسلمين وبحجج دينية واهية كما عطل مفهوم العبور والنظر.

ومن هذا الزاوية سنطل على مسألة عقائدية وهي: (نزعة التجسيم) لكن ليس من خلال حشد الأدلة النظرية ومناقشتها وفق الأدوات الكلامية، بل نقرؤها من خلال كتاب التاريخ، من خلال نموذج تاريخي وتجربة إنسانية يقدمها لنا القرآن الحكيم، لنتعرف من خلالها على حركة المجتمع الإسرائيلي، ونتلمس من خلال حركة الصعود والنزول في هذا المجتمع، كيف سقطت هذه الأمة فريسة هذا المرض بعد تكريمها برسالة التوحيد. ودراسة المسألة العقائدية من خلال هذه المنهجية القرآنية تمكننا من رصد العوامل الطفيلية التي ساهمت في إطفاء جذوة الإيمان والتوحيد في نفوس البشر والأمم، بالإضافة إلى رصد جهود العاملين في زرع بذور الإيمان والتوحيد في النفوس، وهذا ما لا توفره لنا البحوث الكلامية والفلسفية.

فالقرآن يهدينا إلى أن المجتمع كائن حي تعتريه حالات المرض

١- سورة يوسف، آية ١١١.
٢- سورة الروم، آية ٤٢.

والفشل والموت كما تعتري الفرد.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[1]، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2].

ومن هنا ليس من الصحيح النظر إلى حركة الشعوب وتفاعلها مع المبادئ والعقائد الربانية نظرة مطلقة والحكم عليها بحكم واحد. فهي كائن حي قد تجده في مرحلة في أوج الاعتقاد والتسليم، وبعدها يتسرب الوهن والضعف إليها فيقضي على بذور الإيمان.

وهذا ما سنشاهده في سيرة بني إسرائيل ونزعتهم إلى التجسيم.

وفي البدء يذكرنا القرآن بمجموعة من البصائر:

١ـ التحول في الأدوار والمواقع لا يعكس بالضرورة تحولاً جذرياً في حقل الإيمان والاعتقاد.

التجربة التي خاضها بنو إسرائيل حبلى بالتحولات في المواقع والأدوار، فقد عاشت هذه الأمة تحت نيران الاضطهاد، ومُورس في حقها كافة ألوان الظلم والإقصاء ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3] وقد أصلح الله حالهم وأورثهم الأرض

١- سورة الفتح، آية ٢٩.
٢- سورة الأعراف، آية ٥٨.
٣- سورة الأعراف، آية ١٢٩.

وأهلك جلاديهم بفضل صبرهم وتحملهم ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ**﴾[1].

فهل استتبع هذا التبديل في المواقع والأدوار تحولاً في الاعتقاد والإيمان؟.

إن ذيل الآية ﴿**فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ أوضحت للمجتمع الإسرائيلي أن هذا هو التحدي الذي سيواجهم فهل سيقتفون سيرة فرعون وملئه وكل ما هناك أن الأسماء تغيرت والمواقع قد استبدلت، أما أن هذا الاستخلاف سيسهم بشكل كبير في بناء الذات وانطلاقها في رحاب الاعتقاد والتسليم لله.

لا نريد هنا الإسهاب في الإجابة عن هذا التساؤل فالقرآن قص علينا قضية استخلاف بني إسرائيل وبيَّن أنهم قد اقتفوا في كثير من الأفعال والصفات سيرة جلاديهم ﴿**وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[2]، ﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[3].

والأخطر من كل ذلك أنهم وفي أول فرصة استنشقوا فيها عبق الحرية وذاقوا طعم العدالة تنكروا لإيمانهم وتوحيدهم: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ**

١- سورة الأعراف، آية ١٣٥.
٢- سورة البقرة، آية ٤٢.
٣- سورة الأنبياء، آية ١٦١.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]. وهذا يعكس لنا أن التحول لم يلامس النفوس والقلوب بقدر ما كان في الأدوار والمواقع.

لذا ينبه القرآن الحكيم الأمة الإسلامية على هذه الحقيقة الهامة ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[2]، انتقال المسلَمين من حالة الضعف والهوان إلى حالة الاقتدار والتمكين الذي عبرت عنه الآيات بدخول الناس في هذا الدين أفواجاً، لا يعني شيئاً ما لم تصاحبه حالة من التحول في النفوس والقلوب ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾. فالآية تريد أن تهدينا إلى بصيرة هامة وهي: أن حالة النصر والفتح قد تتحول إلى طغيان وتجبر ما لم تضبط بروح التسبيح والاستغفار.

٢ـ بناء على الحقيقة الأولى تؤكد الآيات أن مسيرة الإصلاح والإنقاذ للأمم والشعوب لا تتوقف بمجرد الانتقال في المواقع والأدوار، ومن الخطأ تصور بعض المصلحين أنهّم إذا أزاحوا بعض الأنظمة السياسية واستخلف الله شعوبهم فإن هذا يدعوهم إلى الاسترخاء والدعة.

الواقع أن سقوط النظام السياسي الفاسد يشكل سقوط عقبة كبرى في مسيرة الدعوة والإصلاح ولا يعني نهاية المشوار.

١ – سورة الأعراف، آية ١٣٨.
٢ – سورة الفتح، آية ١ – ٣.

فإن حجم التحديات بعد الانتصار قد يكون أكبر، وفي كثير من الأحيان تسرق جهود المصلحين في طرفة عين، إذا لم يكن المصلحون على درجة كبيرة من الوعي واليقظة، والتجربة التي خاضها نبي الله موسى وهارون عليهما السلام، تعكس مستوى الحذر واليقظة في رعاية الأمة. والتصدي المبكر لكل الطفيليات التي تسعى لإجهاض مشروع الإصلاح والدعوة.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1]، ويجدر التنبيه على حقيقة مهمة هنا وهي أن الإنسان المصلح ينطلق في ممارسة رسالته من مسلّمه حفظ الدين والتدين عند الرعية، ومعلوم أن قضية رعاية التدين لا ترتبط بشكل كامل بالتحول السياسي والإداري، نعم التحول السياسي وزوال الأنظمة السياسية الظالمة يعني التخلص من عقبة كبرى في مسيرة الإصلاح، ولكن لا يعني أن دين الناس قد استقر وحُفِظ بل لابد من ممارسة جهد مضاعف للتصدي لمحاولات العبث والنيل من دين الناس حتى بعد الانتصار.

١- سورة الأعراف، آية ١٣٨ - ١٤١.

مواطن التجسيم

رصد القرآن الحكيم ثلاثة مواطن تمثل فيها المجتمع الإسرائيلي حالة التجسيم:

- الأولى: عندما تخلصوا من جور فرعون وعبروا النهر **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**.

- الثانية: **﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[1]. ولا بد من التأكيد هنا أن طلب موسى عليه السلام الرؤية هو تعبير عن إرادة قومه وعزمهم، وهذا ما توضحه الآيات الأخرى في القرآن الحكيم، **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾**[2]، ويقول تعالى: **﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾**[3]، وفي حوار جميل جرى بين المأمون والإمام الرضا عليه السلام ننقله بطوله لما فيه من فوائد جمّة:

١- سورة الأعراف، آية ١٤٣.
٢- سورة البقرة، آية ٥٥.
٣- سورة النساء، آية ١٥٣.

«قال المأمون للإمام الرضا عليه السلام: يا بن رسول الله! أليس من قولك: الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: يا بن رسول الله! فما معنى قول الله عز وجل: ﴿**وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي**﴾ كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران عليه السلام لا يعلم أن الله تبارك وتعالى ذكره لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟!

قال الرضا عليه السلام: إن كليم الله موسى بن عمران عليه السلام علم أن الله تعالى اعز من أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه الله عز وجل وقربه نجيًّا رجع إلى قومه فاخبرهم أن الله عز وجل كلمه وقربه وناجاه فقالوا: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ**﴾ حتى نستمع كلامه كما سمعت وكان القوم سبعمائة ألف رجل فاختار منهم سبعين ألفاً، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربهم، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل وصعد موسى إلى الطور وسأل الله تعالى: أن يكلمه ويسمعهم كلامه، فكلمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام لأن الله عز وجل أحدثه في الشجرة وجعله منبعثاً منها حتى سمعوه من جميع الوجوه فقالوا: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ**﴾ بأن هذا الذي سمعناه كلام الله ﴿**حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**﴾ فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عز وجل عليهم صاعقه فأخذتهم بظلمهم فماتوا.

فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم، وقالوا: انك ذهبت بهم فقتلتهم؟! لأنك لم تكن صادقاً فيما ادعيت من مناجاة الله عز وجل إياك فأحياهم الله وبعثهم معه. فقالوا: إنك لو

سألت الله أن يريك ننظر إليه لأجابك. وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حق معرفته؟.

فقال موسى: يا قوم إن الله تعالى لا يُرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه. فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله.

فقال موسى: يا رب انك قد سمعت مقالة بني إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحهم.

فأوحى الله جل جلاله: «يا موسى سلني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم» فعند ذلك قال موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ**﴾ وهو يهوي ﴿**فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ**﴾ بآية من آياته ﴿**جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾ يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي ﴿**وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ منهم بأنك لا تُرى.

فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن»[1].

- الثالثة: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ**﴾[2].

هذه ثلاثة مواطن تجلت فيها نزعة التجسيم عند بني إسرائيل

١- الصدوق، الشيخ محمد بن علي، عيون أخبار الرضا [عليه السلام]، ج ٢، ص ١٧٧، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٤٠٤هـ.
٢- سورة الأعراف، آية ١٤٨.

مع اختلافها في بعض التفاصيل وقد تناول القرآن هذه الحالات بالدراسة والتقويم وبالخصوص الحالة الثالثة (عبادة العجل)، فقد ذكرت في القرآن في عدة سور (البقرة، والنساء، والأعراف، طه).

مستوى الإنكار والرفض لنزعة التجسيم

لم تكن قضية الإنكار والرفض لنزعة التجسيم على مستوى واحد عند نبيي الله موسى وهارون عليهما السلام. فقد اتخذ الإنكار أشكالاً تتناسب مع مستوى النزعة التجسيمية عند بني إسرائيل.

ففي حالة عبور النهر لم يتعدَّ مستوى الإنكار الاستهجانَ والتوبيخ وتبيان سخافة هذه النزعة، وذلك لأن القضية مازالت في طور التمني والطلب ولم تتحول إلى طقوس تمارس: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾.

ولذا اتسم الرفض بتبيان سخافة هذا المطلب وتبيان دوافعه ﴿**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾، ومن ثم اتجه الحديث لمناقشة هذه الأطروحة وتبيان فسادها: ﴿**إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ(١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾، وبتعبير آخر اتجه الإنكار والرفض إلى مستوى الحوار والنقاش الهادئ مع تبيان موقعهم السابق عند الله تعالى وضرورة الاحتفاظ بكرسي التفضيل ﴿**قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾.

وما دامت القضية لم تتجاوز حالة التمني والرغبة فإن القرآن

عالجها في سورة الأعراف فقط، ولم يتكرر هذا المشهد في السور الأخرى التي عالجت مشكلة التجسيم وبحثت عن جذوره.

ولكن عندما تحولت النزعة من حالة تمنٍّ إلى حالة تبنٍّ ﴿**اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ**﴾، حتى بلغ بهم الحال أن وصفهم تعالى: ﴿**وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ**﴾، عندها اتخذ نبي الله موسى عليه السلام أسلوباً آخر يتناسب مع مستوى الحجم الذي بلغته ظاهرة التجسيم: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ..... وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾.

فالقضية خرجت عن دائرة الوعظ والإرشاد إلى دائرة الحزم والرفض بأقصى حالاته، وبدأها موسى عليه السلام مع أخيه ليعرف بنو إسرائيل حجم الجرم الذي اقترفوه ﴿**وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ**﴾، وصدر الحكم من الله لاجتثاث هذا الجيل الذي لا أمل في إصلاحه وهدايته: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ**﴾. والقرآن هنا يهدينا إلى بصيرة مهمة في مواجهة الانعطافات الاجتماعية وبالذات ما يتصل منها بقضايا العقيدة، وذلك أن البعض يعتقد جازماً أن التحولات الاجتماعية والعقائدية والفكرية مهما كان حجمها وخطرها، لا يشرع

مواجهتها إلا بالمنطق والبرهان، مستبعداً كل ألوان الحزم والشدّة في محاربة ومواجهة هذه التحديات.

إلاّ أن القرآن الحكيم هنا يفتح الباب على كافة الحلول ابتداء من مقارعة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، وانتهاءً بممارسة الحزم والشدّة. كل ذلك رهين حجم التحول ومداه.

وقبل أن نختم هذه المسألة لا بد من التنويه على عظمة الدور الذي قام به نبي الله هارون عليه السلام فقد يتصور البعض أنه لم يتصدَّ لمقارعة التجسيم واكتفى بالقعود في داره، إلاّ أن القرآن الحكيم يصور لنا مقدار تصديه لظاهرة التجسيم ﴿**وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى**﴾.

وبلغت به المجاهدة لقومه حتى أنهم تآمروا على قتله: ﴿**وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي**﴾.

فكانت ضرورة المحافظة على وحدة المجتمع الإسرائيلي والالتزام بهدى أخيه موسى عليه السلام نصب عينيه وهذا الذي دفع به إلى تبني هذا الموقف: ﴿**قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾.

التجسيم الأرضية والواقع

الوضع الذي وصلت إليه أمة بني إسرائيل والانتقال بين عشية وضحاها إلى حالة التجسيم، يحتاج إلى قراءة متأنية لواقع هذه

الأمة، وذلك من خلال تتبع الدوافع التي أدت بهم إلى تبني التجسيم كمعتقد ودراستها، ولو كانت هذه الظاهرة قد برزت بعد عقود من الزمن لأمكن استساغه ذلك وهضمه، ما أن ينجيهم الله من جبروت فرعون وطغيانه فيخرجون من البحر بفضل الله منتصرين حتى يبدأ مسلسل التجسيم عوضاً عن الشكر والحمد لله!!.

فهذا ما يستدعي تتبع مسيرة بني إسرائيل منذ انطلاقتها واستجابتها لنداء الرسالة. فهل كانت هذه الاستجابة واعية وحقيقية أم أنها كانت مجرد صرخات للتخلص من فتن فرعون، فكان الملاذ هو الكليم موسى عليه السلام؟.

الجهل مصدر الرذائل

التصور القرآني لمفهوم الجهل مغاير للمفهوم البشري، فالقرآن الحكيم لا يحصر الجهل في عدم العلم: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾[1]، بل يوسع مفهومه ليشمل كل حركة في اتجاه الهوى والرذيلة، فالخضوع لسلطان الجنس والتسليم لرغباته شكل من أشكال الجهل ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[2]، ﴿**وَإِلاَّ تَصِرْفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[3]، والاستجابة لنزعة الحسد والركون له شكل آخر من أشكال الجهل: ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾[4]. التخلق بصفات السوء نوع من أنواع الجهل: ﴿**وَإِذَا**

١- سورة البقرة، آية ٢٧٣.
٢- سورة النمل، آية ٥٥.
٣- سورة يوسف، آية ٣٣.
٤- سورة يوسف، آية ٨٩.

خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[١]، وهكذا يعد القرآن كل حركة في اتجاه الهوى والشهوة شكلاً من أشكال الجهل، فالجهل هو مصدر الرذائل (العلمية والنفسية). ومن خلال هذه الرؤية القرآنية نفهم عمق الكلمة التي قالها الكليم عليه السلام في حق قومه عندما طلبوا إلهاً ومعبوداً غير الله عز وجل. ﴿**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾. فشملت هذه الكلمة كل معاني الرذيلة من عدم العلم والهوى والشهوة...

فالذي حملهم على تبني هذه النزعة التجسيمية إنما هو الجهل بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وفي مورد آخر يصرح القرآن الحكيم أن النزوع إلى عبادة غير الله هو وليد حالة الجهل، ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ**﴾[٢].

السامري ونزعة التجسيم

هذا التحول الخطير في حياة بني إسرائيل وضع أيدينا على أحد العوامل الرئيسة في صناعة اتجاهات الأمم والشعوب.

فبمقدار ما للأمم والشعوب من دور كبير في صناعة حاضرها ومستقبلها: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[٣]، كذلك فإن لحركة الفرد وقدرته دوراً في صناعة تاريخ الأمم والشعوب.

القرآن الحكيم في هذا المقطع العقائدي في مسيرة بني إسرائيل عرض لنا الظاهرة (السامرية)، فقد لعب السامري دوراً كبيراً في

١- سورة الفرقان، آية ٦٣.
٢- سورة الزمر، آية ٦٤.
٣- سورة الرعد، آية ١١.

سَوق المجتمع الإسرائيلي ودفعه نحو ظاهرة التجسيم، ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾، ﴿**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ* فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ**﴾[1]، ولعل في الانتقال من الحديث عن المجتمع الاسرائيلي ﴿**فَقَذَفْنَاهَا**﴾ إلى الحديث عن السامري ﴿**فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ**﴾ دلالة كبرى على مدى الاستجابة السريعة لأمة بني إسرائيل لمكر السامري وألاعيبه، ﴿**فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى**﴾ فلاحظ قوله ﴿**فَقَالُوا**﴾ لتدرك مستوى التأثير الذي تركه السامري.

ويجدر بنا كأمة مسلمة أن نقف عند هذا المقطع لدراسة حركة السامري ودوره.

فإن هذه الظاهرة لا تختص بأمة من الأمم ولا بمجتمع من المجتمعات، فإن بإمكان شخصية كالسامري أن يسهم في عرقلة مسيرة أمة ويحد من تطلعها، بل قد يحرف مسيرتها، كل ذلك رهين استجابة تلك الأمة ووعيها.

بقايا ثقافة التجسيم في المجتمع الإسرائيلي

إن الاستجابة السريعة لمخطط السامري، تعكس لنا حجم الثقافة الشركية التي كانت متجذره في نفوس بني إسرائيل، وأنهم لم يستطيعوا التخلص منها بشكل نهائي، فكانت تبرز على السطح لأقل المنبهات، فإن هذا المرض قد تمكن من نفوسهم، وكل ما هناك أنه تارة

١ – سورة طه، آية ٨٨.

يخبو وأخرى يبرز إلى السطح، إلى أن وجد الفرصة الأمثل للتعبير عن وجوده بغياب الكليم موسى بن عمران عليه السلام، وظهور السامري.

فلم يكن هذا المرض بحاجة إلى كثير عناء ليصبح حالةً اجتماعية، فقد عاش بنو إسرائيل عقوداً من الزمن في مجتمع يعكف على عبادة العجول والأصنام مما ساهم في خلق الأرضية المناسبة لتمكن هذا المرض في نفوسهم.

هذا بالإضافة إلى حجم الثقافة المادية التي كان الحكم الفرعوني يبثها، فقد صبغ حياتهم بالثقافة المادية، ويصور لنا القرآن الحكيم ما كان يقوم به فرعون من زرع للثقافة المادية في قوله تعالى: **﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾**[1].

يقول العلامة الطباطبائي: «كان بنو إسرائيل على شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام وقد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وهم على دين التوحيد الذي لا يُعبد فيه إلا الله سبحانه وحده لا شريك له المتعالي عن أن يكون جسماً أو جسمانياً يعرض له شكل أو قدر، غير أن بني إسرائيل - كما يستفاد من قصصهم - كانوا قوماً ماديين حسيين يجرون في حياتهم على أصالة الحس، ولا يعتنون بما وراء الحس إلا اعتناء تشريفياً من غير أصالة ولا حقيقة، وقد مكثوا

١- سورة الزخرف، آية ٥١ - ٥٤.

تحت إسارة القبط سنين متطاولة، وهم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلك أرواحهم وإن كانت العصبية تحفظ لهم دين آبائهم بوجه.

ولذلك كان جلهم لا يتصورون من الله سبحانه إلا أنه جسم من الأجسام بل جوهر أُلوهي يشاكل الإنسان كما هو الظاهر المستفاد من التوارة الدائرة اليوم، وكلما كان موسى يقرب الحق من أذهانهم حولوه إلى أشكال وتماثيل يتوهمون له تعالى، لهذه العلة لما شاهدوا في مسيرهم قوماً يعكفون على أصنام لهم استحسنوا مثل ذلك لأنفسهم فسألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة يعكفون عليها.

فلم يجد موسى عليه السلام بداً من أن يتنزل في بيان توحيد الله سبحانه إلى ما يقارب أفهامهم...»[1].

«وهذه الظاهرة الاجتماعية (عبادة العجل) لم تكن لتحدث لولا وجود أرضية، فبنو إسرائيل قضوا سنين في مصر وشاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار والعجول، ومن جانب آخر عندما عبروا النيل شاهدوا في الضفة الأخرى مشهداً من الوثنية حيث وجدوا قوماً يعبدون البقر»[2].

ولقد عبر القرآن الحكيم في آياته عن عمق هذا المرض في نفوسهم: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾.

١- الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج٨، ص٢٣٨، ط١، ١٤١١هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٢- الشيرازي، آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب المنزل، ج١٦، ط١٤١٣هـ، مؤسسة البعثة، بيروت.

بنو إسرائيل بين الرشد والسفه

تتفاوت الأمم والشعوب في رشدها ونضجها العقلي، وعلى هذا الأساس تتشكل مواقفها تجاه أخطر القضايا وأعقدها وعلى رأسها مسألة الإيمان والتوحيد.

فقد اتسمت العقلية الإسرائيلية بالسفه وضعف الإدراك والتعقل وهو الذي أدى بهم إلى تبني نزعة التجسيم، وفي عدة مواضع عاب القرآن الحكيم على بني إسرائيل هذا الخلق: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[1]، فقد وسمهم الله بالسفه لأنهم كانوا يتصورون أن تحديد القبلة في جهة معينة هو تحديد لجهة الله ومكانه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل الله مالك المشرق والمغرب[2].

واختار الله لهم هذه السمة في هذا الموضع أيضاً: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾، فقد أبان الكليم موسى عليه السلام أن هذا الطلب (رؤية الله) يرتكز على حالة السفه وقلة الإدراك التي انتابت بني إسرائيل فهم مجتمع لا يأنس إلاّ بالمحسوسات.

١- سورة البقرة، آية ١٤٢.
٢- المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، من هدى القرآن، ج١، ص٢٧٤، دار البيان العربي.

وهذا يرشدنا إلى ضرورة زيادة جرعات الرشد في كل أمة حتى تؤهل في تعاملها مع حقائق الغيب. فليس المطلوب تكديس المعلومات وحشدها في حياة الأمم والشعوب، بل الهدف هو توظيف هذا العلم لإيصال الأمم إلى حالة الرشد في تعاطيها مع أعقد المسائل الغيبية. ولعل هذه هي النكتة في طلب الكليم موسى عليه السلام ﴿**عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾[1].

١- سورة الكهف، آية ٦٦.

بنو إسرائيل ومشروع الحرية (رؤية قرآنية)

لو اتصلت جهود البشرية في حقل الحرية بمعارف الوحي لأحدثت نقلة نوعية في مسيرة البشرية.

فما زال الإنسان يكافح لنيل حريته واسترداد كرامته. وقد كلفه ذلك ثمناً باهضاً -من الدماء والدموع- إلا أن التحدي الأكبر الذي واجه الإنسان هي ثقافة الاستعباد بكل ما تحمل هذه الثقافة من معنى.

تلك الثقافة التي نظّر لها فلاسفة اليونان فقسموا الناس إلى فريقين: فريق العبيد وفريق السادة، فكأن الدماء التي تجري في عروق هؤلاء تختلف عن دماء أولئك، أو أن الله قد وهب لهؤلاء السادة عقولاً ذكية وسلبها من أولئك.

ومما يؤسف له أن هذا التنظير قد شق طريقه إلى الحضارة الغربية فعكف فلاسفتها على تلميع وإظهار أسطورة وخرافة الرجل الأبيض.

فهل كان اللون في يوم من الأيام إلا آية من آيات حكمة الله وقدرته ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ**

﴿وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[1].

ولكن أنّى للنفوس الطاغية أن تؤمن بحقائق الحياة، وللأبصار العليلة أن تبصر حكمة الاختلاف.

والإنصاف أن البشرية اليوم بدأت تدرك ضرورة الانعتاق عن هذا الوهم وذلك من خلال تجاوزها لأسطورة الرجل الأبيض.

وبإعلان وثيقة حقوق الإنسان التي تنص على احترام الإنسان بما هو كائن حر كريم، من دون النظر إليه من خلال عدسات اللون والعرق والتراب تكون البشرية قد وضعت رجلها على الطريق الصحيح. وعلى الرغم من وجود ملاحظات منهجية وفنية على وثيقة حقوق الإنسان إلا أنها تبقى مكسباً استطاعت البشرية تحقيقه بعد طول عنا وجهد.

ونحاول في هذه الدراسة أن نسترشد ببصائر الوحي في حقل الحرية من خلال دراسة مشروع الحرية عند المجتمع الإسرائيلي، لتأخذ بصائر الوحي مكانتها في مشوار البشرية المتطلعة نحو الحرية.

١- سورة الروم، آية ٢٢.

بصائر الحرية في القرآن

١ - منهجية البحث القرآني لمسألة الحرية:

اتسمت البحوث الكلامية والفلسفية في قضية الحرية بالمتيافيزيقيا والبحث عما وراء المحسوس، وذلك من خلال دفعها لبحث الحرية في أفق جدلي، أرادوا من خلاله القطع في طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق، فراحت تبحث عن العلاقة بين الإرادة الإلهية والإرادة البشرية، فيما عرف تاريخياً بـ(الجبر والتفويض). وأفضت البحوث في هذا المجال إلى نتائج خطيرة تركت بصامتها على الواقع الحضاري للأمة الإسلامية، «فتبنت الدولة عقيدة الجبر وأوغلت في سفك الدماء وانتهاك الأعراض، متذرعة بأن ذلك فعل الله وأن الملكَ ظِلُّ الله، وأن إعمال العباد مخلوقة لله مقدرة، كما استدلوا بقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]»[2].

واتسمت ثقافة الأمة في فترة طويلة من تاريخها بهذا اللون: «إن فكرة الجبر هي السمة الظاهرة لمجمل الاتجاه الثقافي المناهض للدين الإسلامي ولذلك اختارها الإمام علي عليه السلام لتعريف المسلمين بخطورة هذا الاتجاه الفاسد فسماهم مجوس هذه الأمة، ولذلك ترى المؤرخين الأوائل ينعتون هذا الاتجاه بهذه السمة، وقد تبنى معاوية

١ - سورة فصلت، آية ٦٩.
٢ - الأشعري، كتاب الأبانة عن أصول الديانة.

والسلطات الأموية من بعده الجبر، ولا ريب أن القول بالجبر كان ضمن القول بمجموعة أخرى من الأفكار الفلسفية، ولكن إنما خصت بالذكر دون غيرها لأن المنطلق النفسي للابتعاد عن البصائر الإلهية والاعتقاد بالأفكار الفلسفية إنما هو التحلل من المسؤوليات التي يفرضها الإسلام على الإنسان.

ولذلك تجد أن موقع هؤلاء يكون غالباً عند أصحاب الهوى والسلاطين والمترفين.

وإذا عرفنا أن المسؤوليات السياسية هي من أعظم المسؤوليات التي يفرضها الدين للمحافظة على استقامة الأمة وحرية الإنسان واستقلاله فإننا نعرف ببساطة السبب الذي دفع الحكام الجائرين إلى تبني أفكار الجبر وتشجيع الأفكار الغريبة التي تشوش على الأمة رؤيتها، وتكرس هيمنتهم على الناس.

ولم يكن الحزب الأموي الذي جاء تحدياً جاهلياً صارخاً ضد القيم الإسلامية يملك قاعدة فكرية في مواجهة الحركة الرسالية التي كان أهل البيت عليهم السلام يقودونها متمسكين بهدى القرآن وسنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونور الإلهام. لذلك كان هذا الحزب يشجع الالتقاط والاستلهام من المصادر الأجنبية خصوصاً تلك الأفكار التي تؤيد استمرار سلطته على رقاب المسلمين مثل القول بالجبر الذي شجعه معاوية ومن خلفه من الأمويين، وقد ذهب (جولد تسيهر) و(ترينون) وآخرون إلى أن الأمويين ابتداء بمعاوية كانوا يشجعون القول بالجبر؛ لأنه يبرر حكمهم ويجعل الوقوف ضده خروجاً على

القدر الإلهي، يقول (ابن قتيبة): إن عبد الملك لما قتل عمرو بن سعيد أمر أن يُنادى في الناس بأن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ»[١].

وفي الاتجاه المقابل جنحت طائفة من الفلاسفة فجردت الله من إرادته وقدرته: فإذا (...) واتضح أن كونه (الله) عالماً مريداً واحداً من غير تغاير لا في الذات ولا في الاعتبار فإذاً إرادته بعينها عين علمه بالنظام الأتم وهو بعينه الداعي والغاية من هذا الاختيار»[٢].

و«..القول بوحدة العلم والإرادة هو أكبر جهل تَمَلَّك البشرية بعد جهلهم برب العالمين سبحانه وتعالى، ذلك أن وحدة العلم والإرادة جعلت العالم أزلياً وبالتالي جعلت معنى خلق الله للعالم هو مجرد فيضان العالم من الله (تعالى الله عما يقولون) وولادته منه، وجعلت رب العالمين مضطراً في خلقه. إذ العلم بصدور شيء منك لا ينافي اضطرارك عليه، وجعلت رب القدرة سبحانه وتعالى عاجزاً عن تغيير أي شيء في خلقه، وجعلت البعث والنشور مستحيلاً. كما أن الجهل بواقع الخلق والإرادة كان وراء أكثر المذاهب الجبرية، وإن ذكره القرآن بأن الإرادة الإلهية ليست عين ذاته بل هي كلمته التي خلقها وخلق بها الأحياء فهي فعله وأمره وإذنه وليست ذاته، إن هذه التذكرة حلت أزمة حادة في العقل البشري، إذ إن عقولنا اهتدت بتذكر الوحي إلى أن الإرادة حادثة»[٣].

١- المدرسي، آية الله العظمى السيد محمد تقي، العرفان الإسلامي، بين نظريات البشر وبصائر الوحي، ص١٢ - ٢٢، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان.
٢- ملا صدرا، إبراهيم الشيرازي، الأسفار.
٣- العرفان الإسلامي، (مصدر سابق) ص١٩٣.

فمشكلة البشر أنهم تصوروا أن بإمكانهم التعرف على كل شيء بأدواتهم المحدودة، فأعملوا العقل في ساحة الغيب وأدى بهم هذا الغرور إلى هذه النتائج الخطيرة، فكان حالهم حال الأعمى الذي يزعم أنه قادر على معرفة الألوان باللمس، فيزعم أن الشيء الناعم أبيض، وأن الشيء الخشن أسود، وأن ما بينهما ألوان مختلفة حسب درجة خشونتها وملمسها.

والخلاصة: أن المدارس الكلامية والفلسفية حوَّلت بحوث الحرية إلى معوق لحركة الشعوب والأمم وذلك ضمن المنهجية التي تبنتها هذه المدارس مما أدى بالحكام والسلاطين أن يتكئوا على عكازها في تصفية خصومهم وتوطيد حكمهم.

أما القرآن الحكيم فقد اختط منهجاً مغايراً للمدارس الفلسفية والكلامية في تناوله لبحوث الحرية.

وقد اعتمدت المنهجية القرآنية في تناول مسألة الحرية على ركيزتين أساسيتين:

١- الحقل الاجتماعي.

٢- الحقل الحقوقي.

الحقل الاجتماعي:

القرآن الحكيم دفع ببحث الحرية والإرادة البشرية في آفاقها الاجتماعية محدداً بذلك طبيعة العوامل التي تعيق حركة الحرية عند

الإنسان.

فالقرآن قلما حدثنا عن العلاقة الجدلية بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية.

بل على العكس انصبت بحوثه على تبيان طبيعة العلاقة بين الإرادة البشرية والقوى المضادة سواء تمثلت هذه القوى في المحيط الاجتماعي بما يشمل الآباء والأجداد أو السلطة السياسية الحاكمة أو الظروف الطبيعية.

وقدم لنا القرآن صورة حقيقة لمعركة الحرية والإرادة عند الإنسان والقوى التي تسعى جاهدة لتعطيل هذه الإرادة وألغائها.

والقرآن بهذه المنهجية يضع الإنسان على جادة الصواب ليوظف قدراته وإمكاناته ليواجه كافة هذه التحديات.

ونقدم هنا مجموعة من النماذج القرآنية التي تعكس لنا هذه الحقيقة:

- **﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾**[1].
- **﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا**

١ – سورة الأنبياء، آية ٢٥ – ٤٥.

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[1].

- ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

- ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[3].

- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[4].

- ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا

١- سورة المؤمنون، آية ٥٤ - ٧٤.
٢- سورة النحل، آية ٦٨
٣- سورة الصافات، آية ٣٢ - ٣٣.
٤- سورة الزخرف، آية ٤٢ - ٥٢.

بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2].
- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[3].
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾[4].

هذه النماذج يتبين من خلالها طبيعة الطرح القرآني لمسألة الحرية ويتبين من خلال المفردات التالية:

١- أن القرآن سلك منهجاً مغايراً للتأسيس لمسألة الحرية والإرادة البشرية بيّن فيه العلاقة بين حرية الإنسان وإرادته والقوى الأخرى التي تسعى لتعطيل حريته من (الآباء والأجداد - والسلطة السياسية - والسلطان و...)، كما صرحت بذلك الآيات السابقة.

١- سورة الأعراف، آية ٨٢.
٢- سورة ص، آية ٩٧ - ٣٨.
٣- سورة البقرة، آية ٥٦١ - ٦٦١.
٤- سورة فصلت، آية ٢٩.

٢- قلص القرآن الحكيم من البحوث المرتبطة بالميتافيزقيا التي رفعت بالبحوث إلى جدلية العلاقة بين الإرادة الإلهية والإرادة البشرية، فلا نجد أثراً في الآيات السابقة يعكس لنا هذا التصور الذي تبنته المدارس الفلسفية والكلامية إلا آية واحدة ﴿**قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا...**﴾.

٣- وضعت المنهجية القرآنية الإنسان أمام مسؤوليته، وأن أي تفريط في حريته وإرادته لأي جهة كانت (سياسية - أم اجتماعية) فإنه محاسب على ذلك، وأكدت ذلك آيات سورة فصلت وآيات سورة البقرة.

الحقل الحقوقي:

القرآن الحكيم لم يكتف بالتنظير لمسألة الحرية وتبيان العوامل المضادة لحركة الإنسان وإرادته بل خطى خطوة إلى الأمام عندما سن (التشريعات والقوانين التفصيلية التي من خلالها يحافظ على شخصيته فيما يعرف اليوم بحقوق الإنسان).

والنقطة الجديرة بالملاحظة أن المنهجية القرآنية ركزت على حقوق الحلقات الاجتماعية الضعيفة، كالمرأة واليتيم والطفل باعتبارهم أكثر الشرائح الاجتماعية تعرضاً لسلب حقوقهم.

ففي سورة النساء حديث تفصيلي لهذه الحقوق وضرورة رعايتها: ﴿**وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾[1].

١- سورة النساء، آية ٢.

وقوله تعالى: ﴿وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِيناً * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٦).

١- سورة النساء، آية ٤.
٢- سورة النساء، آية ٦.
٣- سورة النساء، آية ٠١.
٤- سورة النساء، آية ٩١.
٥- سورة النساء، آية ٠٢ - ١٢.
٦- سورة النساء، آية ٨٢١.

ومن سورة البقرة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ الله هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَالله يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

هذه نماذج من التشريعات الحقوقية التي سنها القرآن الحكيم ويتبين من خلالها مدى العناية الكبرى بالحلقات الضعيفة في المجتمع.

وبهذا يعلن الإسلام عن هويته بأن الحضارة التي يريد إقامتها قائمة على صيانة حقوق الضعفاء.

١- سورة البقرة، آية ١٣٢ - ٣٣٢.

وهذا ما لا تدركه الحضارة المادية القائمة على المنفعة فهي تسعى لجلب المنفعة حتى لو كان على حساب سرقه جهود الضعفاء.

٢- هكذا تحدث القرآن عن الحرية:

منهجية القرآن قائمة على سوق الأدلة وإبراز البراهين؛ حتى تستيقن القلوب وتطمئن النفوس وتنقاد العقول، إلا أنه في مسألة الحرية قلما حدثنا القرآن عن أصل الحرية وساق على عادته الأدلة والبراهين.

ولعل ذلك يرجع إلى أن إنسانية الإنسان تختزن حريته ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾[1]، فتكوينه خليط ﴿**أَمْشَاجٍ**﴾ من الخير والشر.

من هنا لم يصرف القرآن جهداً لإثبات حرية الإنسان وإنما سعى لإثبات مجموعة من الحقائق المرتبطة بحريته:

أ- المسؤولية -الجزاء- ثمرة الحرية: في الوقت الذي تضاءلت نسبة الحديث القرآني عن إثبات أصل الحرية (بأن الإنسان حر) توسع في الحديث عن مسؤوليته وجزاء أعماله، ففي كل سوره وآياته تجد حديثاً مفصلاً عن المسؤولية باعتبارها الثمرة الكبرى للحرية، ويكفي أن تعرف بأن أصلين من أصول الدين يرتبطان مباشرة بقضية المسؤولية وهما المعاد والعدل.

١- سورة الإنسان، آية ٢.

والسرّ في هذا الحديث التفصيلي لمسألة المسؤولية أن أقواماً على الرغم من إقرارهم وتسليمهم بمبدأ الحرية إلا أننا نراهم يتنصلون من تبعات أعمالهم، كما نجد هذه الظاهرة واضحة عند المجتمع الإسرائيلي عند الحديث عنه.

من هنا فإن القرآن يطارد هذه الفكرة الجاهلية التي توارثتها بعض الأمم والأجيال وذلك من خلال حديثه التفصيلي عن المعاد والحساب:

١. ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1].

٢. ﴿تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ؟* فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيهْ *... وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ...﴾[2].

٣. وينقل الإنسان إلى عالم الآخرة ليوقفه على تجسم أعماله وحركاته وسكناته:

٤. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى؟ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[3].

١- سورة الإسراء، آية ٣١ - ٤١.

٢- سورة الحاقة، آية ١٨ - ٢٦.

٣- سورة النجم، آية ٣٩ - ٤٠.

٥. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١].

٦. ولا يكتفي القرآن بذلك بل يوقف الإنسان على مسؤولية أعماله وأن تبعاتها لن يحملها إلا هو:

٧. ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٢].

٨. ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٣].

٣- الحرية بين الطاعة والفوضى:

الأفق الآخر الذي فتحه القرآن الحكيم في بحث الحرية، هو حركة الحرية واتجاهها.

وتوضيح ذلك أن الإنسان بطبعه كائن اجتماعي لا يمكنه إعمال حريته المطلقة في كل شيء، وإلا استلزم ذلك الفوضى الاجتماعية والهرج والمرج، ولعل هذا هو الذي حدا بالإنسان لتشكيل الحكومة فمن خلالها تحفظ حقوق كافة الأفراد والشرائح الاجتماعية.

من هنا لابد أن تكون حرية الإنسان وحركته ضمن نظام وقانون حتى تتكامل إرادات البشر وتفضي إلى التطور والتقدم.

١- سورة الكهف، آية ٤٩.

٢- سورة الأنعام، آية ١٦٤.

٣- سورة البقرة، آية ٤٨.

وهذا الذي حدا بالقرآن أن يعالج مسألة الحرية من خلال اتجاهها.

وبتعبير آخر: إن مشكلة البشر ليست في الحرية بمقدار ما هي في الطاعة، فالطاعة هي التي تصبغ الحرية وتلونها.

والمعارك التي خاضتها الأمم والشعوب في حقيقتها معارك الطاعة، فهي التي تحدد مسار الحرية وإطارها الذي تتحرك الإرادة الإنسانية من خلاله.

من هنا فإن القرآن الحكيم ركز حديثه في بعدين:

الأول: شجب ورفض كل ألوان الطاعة التي تشل حرية الإنسان وتعطل إرادته:

- ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1].
- ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[2].
- ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ﴾[3].
- ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[4].

١- سورة الكهف، آية ٢٨.

٢- سورة الفرقان، آية ٥٢.

٣- سورة القلم، آية ١٠.

٤- سورة الإنسان، آية ٢٤.

- ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[١].
- ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾[٢].

ومن جانب آخر دعا القرآن إلى طاعة الله ورسوله وأولي الأمر:

- ﴿مَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].
- ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٤].
- ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٥].
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٦].

وبكلمة: إن القرآن يضع أيدينا على حقيقة هامة ألا وهي: أن معارك الأمم والشعوب في الحقيقة هي معركة الطاعة قبل أن تكون معركة الحرية.

١- سورة الشعراء، آية ١٥١.
٢- سورة العنكبوت، آية ٨.
٣- سورة النساء، آية ٦٩.
٤- سورة الأنبياء، آية ٧١.
٥- سورة آل عمران، آية ١٣٢.
٦- سورة النساء، آية ٥٩.

فلا مكان للحرية المطلقة ضمن الفضاء الاجتماعي الذي يعيشه الإنسان ولابد له أن يتنازل عن شيء من حريته ليتعايش مع الآخرين.

فإلى من سيتنازل عنها؟ ومن سيطيع؟

هنا تتحدد هوية الإنسان وحريته فمن خلال اتجاه الحرية «الطاعة» تُصبغ إرادته وحريته وتتحدد ملامح حياته. فأي خضوع وطاعة لغير من نصبه الله تعالى هو في الواقع تفريط في كامل الحرية التي أودعها الله في الإنسان، أما إذا استجاب الإنسان لنداء الخالق فأطاع من نصبه فهو في الواقع الرابح الأكبر من هذه القضية، ذلك أن هذه الطاعة هي الضمانة الأساسية لرفد مشروع الحرية، أما كيف تتحقق هذه المسألة؟ وما هي العلاقة بين الطاعة لله ومن نصبه؟ وتحقيق آمال الإنسان وطموحاته؟ وكيف تساهم هذه الطاعة في تعزيز الحرية وإنمائها؟ هذا ما سنشير إلى بعضه في الفقرة القادمة.

٣- الحرية والانتفاع بالحياة:

الناظر في أحوال المسلمين وأوضاعهم تنتابه الدهشة ويعلوه الاستغراب أهذه هي الأمة التي قلدها الله وسام الخيرية ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾[1]؟! أوليس القرآن يصيح بهم (صباحاً - مساء) ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾[2]، ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ**

١- سورة آل عمران، آية ١١٠.

٢- سورة لقمان، آية ٢٠.

ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[1].

فما لهم لا يمشون في مناكبها؟ ولا ينتفعون من خيراتها؟ أجعلت الأرض لهم حزناً بعدما كانت سهلاً؟

الواقع أن الحديث عن أوضاع المسلمين وبالذات ما يتصل منها بشؤون الانتفاع من الحياة حديث ذو شجون، ونكتفي هنا بالبصيرة القرآنية التي ساقتها الآيات الكريمة، فالقرآن الحكيم يؤكد بأن الأوضاع الاقتصادية المتردية والموقف السلبي من الانتفاع بخيرات الحياة ما هو إلا مظهر لاستلاب حرية الإنسان.

ولتوضيح هذا المعنى نقول: إن الإسلام سلسلة من القيم يأخذ بعضها بعنق الآخر فالإيمان والحرية والانتفاع بالحياة قيم ثلاثة لا يمكن فصلها عن بعض.

فقد تكرر الحديث في القرآن عن خطوات الشيطان والقرآن في كل مرّة يحدثنا عن خطوات الشيطان يقرن ذلك بالحديث عن عدم الانتفاع بالحياة وخيراتها.

ففي سورة البقرة يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ للّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[2].

١- سورة الملك، آية ١٥.

٢- سورة البقرة، آية ١٦٨ - ١٧٣.

وفي سورة الأنعام يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاء عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ﴾[1].

ففي هذه الآيات تتجلى العلاقة الوطيدة بين خطوات الشيطان وحرمان المجتمعات من الانتفاع بخيرات الحياة، ذلك أن خطوات الشيطان تمثل الأغلال التي تسلب حرية الإنسان وإرادته وعندها يفقد القدرة على الانتفاع بالحياة وتنمية الأوضاع المعيشية فضلاً عن السعي الجاد لعمارة الأرض.

وتنقل لنا الآيات صورة من هذه الخطوات التي دفعت بهؤلاء إلى أن يسلطوا حرابهم ويشهروها على فلذة أكبادهم (وهم الأبناء) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا﴾[2]، ومعروف أن رأس مال

١- سورة الأنعام، آية ١٣٨ - ١٤٢.

٢- سورة الأنعام، آية ١٤٠.

عمارة الأرض هو الكائن البشري، لكن هذه الخطوات الشيطانية تدفع باتجاه إنهاء حياة هذا الكائن ويبقى السؤال عن كيفية شلّ خطوات الشيطان إرادة الإنسان وتعطيل حريته حتى يبدو أنه لا يحرك ساكناً في هذه الحياة؟

دعنا نستمع إلى هذا الكلام: «قبل كل شيء لابد أن نضع للحرية هدفاً سامياً، فالحرية في المجتمع الإسلامي والتي دعت لها آيات الدرس السابق «رفض الأنداد» ذات هدف هو: الانتفاع بنعم الله، وبكل صراحة يوجه الله خطابه إلى الناس كل الناس المؤمنين والكافرين قائلاً: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً**﴾[1] وبذلك يقرر الأصل في الأشياء الحلية حتى يثبت أنها حرام والتعبير بـ ﴿**مِمَّا فِي الأَرْضِ**﴾ تعبير يدل على الإطلاق مما يعكس لنا نظرة القرآن الإيجابية للحياة.

إن الله يريد أن نتمتع بالحياة ولكن الشيطان يمنعنا، أنه يُوجِدُ الحواجز بين الإنسان وبين نعم الله، وعلى الإنسان ألا يتبع الشيطان وأن يقاومه كما أن الشيطان يزين للناس الغايات الخبيثة والإسراف والطمع وكلها تمنع من الانتفاع السليم والتام من خيرات الأرض ﴿**وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ**﴾[2].

إنه لا يريدكم أن تنعموا بالحياة فلماذا تتبعوه؟

الذين يمنعون زراعة الأرض بحجة أنها لفلان هم أعداء

١- سورة البقرة، آية ١٦٨.

٢- سورة البقرة، آية ٢٠٨.

الإنسان، والذين يمنعون التجارة ويضعون حواجز في طريق الله هم أعداء للإنسان، والذين يمنعون عمارة الأرض هم أعداء للإنسان، وعلى الإنسان ألاَّ يتبع أعداءه.

وعن تبسيط القوانين والتقاليد التي يصنعها الشيطان نجد أنها تنقسم إلى ثلاث فئات: فبعضها (سوء) يمنع الانتفاع بالحياة مثل أكثر القوانين الزراعية والتجارية الحديثة التي وضعت للحد من نشاط الناس للإبقاء على سيطرة مراكز القوى (شياطين الأرض) على مقدرات الناس.

وكمثل بسيط كان رؤساء العشائر الذين كانوا يتمتعون بقوة البطش يقتطعون لأنفسهم أرضاً يسمونها بالحِمَى ويحرمون على الناس رعي أغنامهم فيها ثم تطورت وأصبحت تلك الأراضي ملكاً لأقرب الناس إلى السلاطين (الاقطاعات السلطانية) ثم تطورت وأصبحت الأموال أراضي أميرية مرتبطة بالبلاط الملكي ثم تطورت وأصبحت ملكاً لأصحاب رؤوس الأموال الضخمة.

ترى أن كل هذه القوانين منعت من زراعة الأرض وبالتالي انتفاع الإنسان بها والسؤال كيف استطاع هؤلاء الشياطين منع الناس من الانتفاع بما جعل الله لهم حلالاً؟

الجواب: إنما فعلوا ذلك في ظل القوانين والأعراف والتقاليد الباطلة فإن إيمان الناس واتِّباعهم لتلك القوانين والأعراف والتقاليد هو السبب غير المباشر لعدم انتفاعهم... (والسوء) يتطور إلى (الفحشاء) إذ إنه يكرس السلطة والثروة بيد طائفة من الناس يستغلونها في الظلم،

والفحشاء تُلبس بثياب الدين بفعل تعاون الانتفاعيين المستثمرين مع بعض من يسمى برجال الدين الذين يحرفون كلام الله ويكتمون الكتاب.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

أحد مظاهر (السوء) الأنظمة الباطلة، كما أن أبرز مظاهر الفحشاء الظلم الاجتماعي الذي يقع عادة بسبب تلك الأنظمة، والتبرير الديني لتلك الأنظمة ذلك هوالظلم.

القرآن الكريم حدثنا عن فعل الشيطان من خلال مشاهد عديدة، فحدثنا عن وساوسه **﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾**[2]، وحدثنا عن إلقاء الشيطان **﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِيَن لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ﴾**[3]، كما نبهنا إلى خطواته **﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾**[4]. ويبدو أن قضية الخطوات تتعدى مسألة التأثير النفسي إلى الواقع العملي، فهذه الخطوات تتجسد من خلال الأحكام والتشريعات التي يسنها علماء السوء **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[5] لاحظ أن

١- سورة البقرة، آية ١٦٩.
٢- سورة الناس، آية ٤ - ٥.
٣- سورة الأنعام، آية ١٢١.
٤- سورة الأنعام، آية ١٤٢.
٥- سورة البقرة، آية ١٧٤.

هذه الآية جاءت بعد الحديث عن خطوات الشيطان وسرد مجموعة من الأحكام المستفادة من الأصل العام وهو الحلية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾[1]، فيورد القرآن هذه المستثنيات ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ**﴾[2]، ولكن علماء اليهود وسعوا من دائرة المحرمات حتى كادوا أن يحرموا كل شيء وكتموا حكم الله في الأكل بغياً وظلماً ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ**﴾[3].

وتتجسد خطوات الشيطان أيضاً من خلال العادات والتقاليد التي عبرت عنها الآيات نفسها بإتِّباع الآباء والأجداد ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾[4]، فهذه الآية كذلك جاءت ضمن سياق خطوات الشيطان وتحريم ما أحل الله تعالى.

وبكلمة: القرآن الحكيم هنا أشار إلى تجليين من تجليات الخطوات الشيطانية:

الأول: هو القوانين والأحكام التي يسنها علماء السوء.

والثاني: العادات والتقاليد الاجتماعية متمثلة في تراث الآباء المانع من الانفتاح والانتفاع بخيرات الحياة.

١- سورة البقرة، آية ١٧٢.

٢- سورة البقرة، آية ١٧٣.

٣- سورة البقرة، آية ١٧٤.

٤- سورة البقرة، آية ١٧٠.

فالقوانين والعادات هي التي تشل حركة الشعوب وتحد من حريتها من هنا فإن السبيل الأساسي لانطلاق حركة الشعوب وانفتاحها على الحياة هو الأخذ بالتشريعات السماوية وبالذات منها المتصلة بشؤون المعيشة كقوانين الأراضي «الأرض لله ولمن عمرها»، وقوانين الزراعة وقوانين التجارة...

إن هذه الأحكام والتشريعات التي أنبجست من هدى الرسالة ضرب بها المسلمون عرض الحائط فغدت حياتهم نكداً ومعيشتهم ضنكاً.

ولذا كانت مهمة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) هي كسر هذه الأغلال وإزالة هذه العوائق -من القوانين والتقاليد الفاسدة- التي تعيق حركة الإنسان وتحد من حريته عندها سينفتح الإنسان على الحياة والكون ويُعمل حريته وإرادته للانتفاع من خيراتها.

فلاحظ العلاقة بين مفردات هذه الآية المباركة: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾[1]، فإن الإصر والأغلال هي التي تحجب الإنسان عن الانتفاع بالطيبات والخيرات.

«ذكرنا أن الحريات الموجودة فيما يسمى بالعالم الحرّ لا تكون إلا بعدد العُشر أو الأقل من العشر من الحريات الممنوحة في الإسلام وإلا فلا حرية عندهم من الإجارة أو حيازة المباحات أو غيرها، كما لا حرية عندهم للإنسان حيث قيدوه بالجواز والهوية والجنسية ونحوها،

١- سورة الأعراف، آية ١٥٧.

وهكذا يقيد بتأشيرة الدخول وتأشيرة الخروج وخصوصيات الإقامة، كذلك يقيد بالجمارك والضرائب، وقيود دفن الميت، وقيود تسجيل الأملاك والزواج، وهكذا تكبت الحريات بسبب أجهزة التجسس، كما أنه لا حرية في فتح المحلات إلا مع إجازة خاصة مسموح بها فيما يسمى بالقانون، وكذلك لا حرية في فتح المعامل إلا بقيود خاصة إلى غير ذلك من العرف والقوانين الكابتة لمعاملات الناس من رهن وزراعة وقرض وبيع وشراء وغيرها، والإسلام إنما تقدم من أول زمانه لعدة أمور من جملتها: أن العالم رأى في الإسلام الحرية ففروا من أديانهم وحكوماتهم إلى حرية الإسلام زرافات ووحدانا. أما اليوم فإن الناس لا يرون من بلاد الإسلام إلا الكبت والإرهاب المتزايد حتى عن بلاد الغرب ولذا يلجؤون إلى بلاد الغرب جماعات جماعات. ولا يرجع الأمر إلى الإسلام إلا إذا أعيدت الحريات الإسلامية أولاً، وعلم الناس أن القائمين بالإسلام هم أناس يمكن أن يعيش الإنسان في ظلهم من أمن وسلام ثانياً»[1].

٤- لا تفريط في الحرية:

في هذه النقطة نجد المفارقة الجوهرية بين الأطروحة القرآنية والأطروحات الوضعية لمسألة الحرية، وذلك أن المبادئ الوضعية اكتفت بسن القوانين الحقوقية وتوبيخ وتقريع من يعتدي على حريات الآخرين.

أما القرآن الحكيم فهو مع إقراره لهذا المبدأ ودعوته له من

١- الإمام الشيرازي (قدس سره)، الحريات، ص٢٦٣.

خلال عشرات الآيات ﴿**وَلَا تَعْتَدُواْ**﴾[١]،فإنه يجازي ويحاسب كل من يتنازل ويفرط في حريته فهو كما لا يسمح للقوي أن يسلّ سيف البغي فيسلب حريات الآخرين، كذلك لا يجيز للطرف الآخر أن يفرط بحريته وهو محاسب ومعاقب على هذه الصنيع إن فعل ذلك ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[٢].

وانطلاقاً من هذه البصيرة القرآنية شرع القرآن للإنسان الأمور التالية:

١- الإعلان عن ظلامته والتشهير بمن أذاقه كأس الظلم: ﴿**لاَّ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾[٣].

فحتى لا تبقى حقوق الناس شرعة لكل من هبّ ودب أباح القرآن للإنسان المظلوم الحديث عن ظلامته.

٢- الهم العام: ومن جهة أخرى فإن هذا الإنسان إذا لم تسعفه إمكاناته لمقارعة غرور الظالمين وجبروتهم فقد شرع القرآن في حقه طلب النصرة والعون من بني جلدته ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ**

١- سورة البقرة آية ١٩٠.
٢- سورة النساء، آية ٩٧ - ٩٩.
٣- سورة النساء، آية ١٤٨.

الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[1]، والآية المباركة في سياق المدح والثناء لخصال المؤمنين وعلى رأسها صفة الانتصار للمظلوم. ولعل هذه مفارقة أخرى تعكسها لنا الآيات القرآنية **﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾**[2].

بين الأطروحة القرآنية والتصورات البشرية، ذلك أننا وجدنا بعض الأمم والشعوب التي سعت لنيل حريتها واسترداد حقوقها إلا أنها في ذاك الوقت تبيح لنفسها امتهان الأمم الأخرى واستعبادها، بل وسوقها إلى مشانق الموت، وكأن الحرية حكراً عليهم!

وقد رأينا هذا فيما أنجزته الحضارة الحديثة من مشروع الحرية، فالحرية التي كانت أملاً لكل الشعوب الأوربية وكابدت من أجل نيلها صنوف المحن وألوان البلاء هذه الحرية -التي هي حق لكل إنسان- تضن بها هذه الشعوب على الأمم الأخرى.

في الوقت الذي يشرع القرآن الحكيم لأبنائه الدفاع عن الشعوب المظلومة مهما كان لونها وجنسها وعقيدتها ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾[3].

١- سورة الشورى، آية ٣٩.

٢- سورة النساء، آية ٧٥.

٣- سورة النساء، آية ٧٥.

مشروع الحرية عند بني إسرائيل:

للتعرف على الملامح العامة لمشروع الحرية عند المجتمع الإسرائيلي لابد من الوقوف على الظروف النفسية والأوضاع الاجتماعية لهذا المجتمع؛ لتكون بوابة لفهمنا لطبيعة هذه الأمة.

١- مجتمع الأماني والأحلام:

لعل الأرضية النفسية التي فرخت للكثير من النزعات الدينية والعنصرية عند المجتمع الإسرائيلي هي غياب ثمرة الحرية المتمثلة في المسؤولية.

فأصبح الإسرائيلي يعتقد في قرارة نفسه عدم مسؤوليته عن أعماله وتصرفاته، فزعم أن الجنة حكر عليه ﴿**وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

وراح يمني نفسه بأن النار لن تحصد جسده وروحه وإن مسته فلن تمسه إلا أياماً معدودة ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنَ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ**

١- سورة البقرة، آية ١١١.

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

فهو الابن المدلل لرب العالمين (سبحانه عما يقولون): **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء﴾**[2].

ولذا أباحوا لأنفسهم الاعتداء على الآخرين **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾**[3].

من هنا ندرك الحكمة القرآنية من معالجة هذه المسألة عند المجتمع الإسرائيلي فليس اعتباطاً أن يخصص القرآن الحكيم حديثاً مفصلاً عن (قصة البقرة) ذلك أنها تشكل لوناً من ألوان التملص عن المسؤولية.

ولذا لابد من التنبيه على مسألتين:

١ - تحول هذه الفكرة (غياب المسؤولية) إلى ظاهرة في المجتمع الإسرائيلي بحيث أنها غدت تشكل السمة العامة لحركة المجتمع.

فلاحظ هاتين الآيتين: **﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[4]. وقوله تعالى: **﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ**

١- سورة البقرة، آية ٨٠ - ٨١.

٢- سورة المائدة، آية ١٨.

٣- سورة آل عمران، آية ٧٥.

٤- سورة البقرة، آية ١٣٣ - ١٣٤.

وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِّمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وردتا ضمن الحديث عن المجتمع الإسرائيلي لتقررا لنا حقيقة هامة، وهي تمكن هذا المرض من نفوس المجتمع الإسرائيلي بحيث غدت الظاهرة الأبرز والعنوان العام لهذا المجتمع.

فالقرآن في حديثه عن الشعوب والأمم الأخرى يتناول الموضوع في دائرته الخاصة وذلك أن هذا المرض لم يتحول عندها إلى ظاهرة لكنه في الحديث عن بني إسرائيل تحدث عنها على مستوى الظاهر والصبغة العامة لهذه الأمة.

٢- نسف القرآن لفكرة الشفاعة في صورتها السلبية[2]:

فقد تناول القرآن موضوع الشفاعة ضمن مستويات متفاوتة، وكان النصيب الأوفر ينصب على نسق هذه الفكرة عند المجتمع الإسرائيلي وذلك لما تشكله من دعامة يتكئ عليها هذا المجتمع لتسويق وتبرير عدم تحمله لمسؤولياته الحياتية.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3].

١- سورة البقرة، آية ١٤٠.

٢- فقد أثبت القرآن فكرة الشفاعة في صورتها الإيجابية ودعمها.

٣- سورة البقرة، آية ٨٠ - ٨١.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرونَ﴾[2].

منهجان لدراسة فكرة الشفاعة:

الأول: الجمع الدلالي بين الآيات القرآنية المثبتة للشفاعة والنافية لها، فحملت الآيات النافية للشفاعة على محامل لا تتنافى مع الآيات المثبتة.

هذه المنهجية التي سلكها غالب المفسرين.

الثاني: دراسة طبيعة المجتمع الذي يتناوله القرآن الحكيم فلو لاحظنا الآيات النافية لفكرة الشفاعة نجدها تتركز في المجتمعات التي شكلت الأماني والأحلام الدعامة الأساسية في حركتها وحياتها.

كما أشرنا إلى ذلك في الحديث عن المجتمع الإسرائيلي وأشباهه، فالقرآن عندما يتناول فكرة الشفاعة عندهم ينسفها ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[3]، لأنها تشكل حجر الأساس من حياتهم ولا مجال هنا للحديث عن الشفاعة في صورتها الإيجابية وفق الجمع

١- سورة البقرة، آية ١١١.

٢- سورة البقرة، آية ١٢٢.

٣- سورة البقرة، آية ٤٨.

الدلالي الذي اختاره بعض العلماء.

نعم القرآن في حديثه عن المجمعات والأفراد الذين جعلوا العمل عنواناً لحياتهم والمسؤولية منهجاً لتحركهم لو تعثروا في الطريق ووقعوا في بعض الهفوات والزلات فإن القرآن يفتح لهم باب الشفاعة.

٢- مجتمع الاستعباد:

تناول القرآن قصص المجتمعات ومكانتها وما نالها من جور وظلم وتعدي، إلا أن التجربة التي بلغت مداها في التجاوز والعدوان كانت هي تجربة المجتمع الإسرائيلي مع آل فرعون، فقد سام فرعون بني إسرائيل وأذاقهم ألوان العذاب فراح يذبح أبناءهم ويستحيي نسائهم **﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾**[١].

ولسان حال فرعون أنكم عبيد لي، ولعل من تعابير بعض الآيات القرآنية تبيان لمستوى الاستعباد الذي مارسه فرعون بحق هذه الأمة **﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾**[٢].

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾[٣].

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[٤].

١- سورة البقرة، آية ٤٩.
٢- سورة المؤمنون، آية ٤٧.
٣- سورة الشعراء، آية ٢٢.
٤- سورة الشعراء، آية ٢٩.

وبكلمة: العلاقة بين المجتمع الإسرائيلي وفرعون تحولت من علاقة حاكم بمحكوم إلى علاقة إله بعبيده -هكذا أرادها فرعون-.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[1].

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[2].

وهذا الجنون الذي اعترى فرعون وركب عقله حوّل حياة بني إسرائيل إلى جحيم ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[3]،وأي بلاء أعظم من هذا البلاء.

وترك هذا الصنيع بصماته على نفسية المجتمع الإسرائيلي.

يوم الحرية يوم الله:

أرست الأديان السماوية الحقة تقليداً يعبر عن عمق العلاقة بين هذه الرسالات والإنسان، هذا التقليد يقضي بأن يجعل يوم التحرر من العبودية يوماً مقدساً نستحضر فيه آلاء الله ونعمه على المؤمنين وغضب الله وسخطه على المستكبرين.

ففي يوم الحرية تستعيد البشرية إنسانيتها التي ذهبت نهباً لأطماع الطامعين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[4].

١- سورة النازعات، آية ٢٣ - ٢٤.

٢- سورة الشعراء، آية ٢٩.

٣- سورة البقرة، آية ٤٩.

٤- سورة إبراهيم، آية ٥.

والجميل أن الآية نسبت ذلك اليوم إلى الله مع أن كل الأيام هي أيام الله كل ذلك إعظاماً وتكريماً وتخليداً لليوم الذي تستعاد فيه الحرية والكرامة، تماماً كما أن الأمكنة قد خلقها الله ولكنه نسب منها مكاناً واحداً لنفسه (بيت الله).

هذا البيت الذي وصفه تعالى ﴿**الْبَيْتَ الْحَرَامَ**﴾ فهو حرام لا اعتداء ولا طغيان فيه فهو بيت الحرية، فالخلق عندما يجعلوا البيت الحرام قبلة لهم فهم يتوجهون إلى قبلة الحرية.

وهنا يلتقي الزمان والمكان؛ فالزمان (يوم الله) هو يوم التحرير والمكان (بيت الله) هو قبلة الحرية فيلتقيان في وصف واحد وهو (الحرية).

فالحرية هي صفة البيت الذي ينسب لله ﴿**الْبَيْتَ الْحَرَامَ**﴾ والحرية هي صفة اليوم الذي ينسب لله عزّ وجلّ ﴿**أَيَّامِ اللهِ**﴾.

ولعل السر في ذلك التذكير بحرية الإنسان التي لولاها ما نهضة أمة ولولاها لما خطى العلم خطواته الفساح ولولاها ما انتفع البشر بخيرات الحياة.

أولا يستحق أن يجعل يوم الحرية عيداً؟ بلى ولذلك فإن الكليم مهمة يذكر بني إسرائيل بأشرف الأيام التي مرت عليهم وهو يوم الحرية.

المجتمع الإسرائيلي بين التفضيل والمسؤولية:

يحيد عن الصواب من يزعم أن الله عزّ وجلّ تربطه بخلقه آصرة الأبوة والقرآبة!!! فصلة القرب بين العبد وخالقه هي الإيمان والعمل الصالح، فهي التي تقرب العبد من خالقه وتردم الهوة الفاصلة، وتقطع حجب الغفلة والنسيان، ولذا لا تجد تكريماً في القرآن الحكيم لبني إسرائيل وأعلاء لمقامهم إلا ويشفعه القرآن بالتذكير بفكرة المسؤولية.

فلاحظ قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[1].

ويقول: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[2].

فلاحظ كيف أن القرآن قرن بين التفضيل والمسؤولية، وجعل هذا التكريم مرهوناً بمقدار ما يتحمل هذا المجتمع من روح المسؤولية. أما إذا أسفَّ المجتمع في ارتكاب الفواحش وساقته شهواته وأهواؤه إلى مواطن الرذيلة والفجور وغدا لا يعبأ بحساب ولا جزاء مستسلماً لأوهام الحظوة والقرب والشفاعة، فإن هذا: يؤدي لنزع

١- سورة البقرة، آية ١٢٢ - ١٢٣.

٢- سورة البقرة، آية ٤٨.

وسام التفضيل والتكريم منه.

وبكلمة: إن التكريم ما هو إلا حصاد أعمال تلك الأمة.

استجابة المجتمع الإسرائيلي لمشروع الحرية:

تسلل الرعب والخوف إلى نفوس بني إسرائيل وامتلكهم اليأس من الإصلاح والتغيير، كل ذلك جراء ما لاقوه من بلاء عظيم حصد الصغير قبل الكبير والأنثى قبل الذكر ﴿**سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾[1].

من هنا فإن مشروع الحرية الذي بشر به كليم الله موسى عليه السلام اصطدم بالتشكيك في قدرته على تجاوز سلسلة المحن والابتلاءات التي ذاقها الشعب الإسرائيلي فقد كان موسى عليه السلام مدركاً لحجم المعاناة التي كابدها بنو إسرائيل ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[2].

لكن هذه التوصيات لم تستقر في نفوس المجتمع الإسرائيلي بل راودتهم الشكوك وانتابتهم المخاوف من مقدرة موسى عليه السلام على إنقاذهم ﴿**قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[3].

ولذا فإن الذين استجابوا لهذا المشروع كانت طائفة من بني

١- سورة الأعراف، آية ١٢٧.

٢- سورة الأعراف، آية ١٢٨.

٣- سورة الأعراف، آية ١٢٩.

إسرائيل ﴿فَمَآ آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[1].

والواقع أن الكثير من الأمم والشعوب تحسب أن الطريق إلى التحرير والنصر مزروع بالورد، مع أن الله نبّه في كتابه إلى سنته في الانتصار والتحرير ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**﴾[2].

١- سورة البقرة، آية ٢١٤.

٢- سورة يونس، آية ٨٣.

ملامح مشروع الحرية

١ - الهجرة ميلاد أمة:

مشروع الحرية الذي بشر به كليم الله موسى عليه السلام تميز بخصال قلّما نجدها في مشاريع الحرية الأخرى، فعادة ما تتسم مشاريع الحرية بمقارعة الطغيان والإطاحة بجبروت الحكام ومن ثم تربع المستضعفين على كرسي الحكم والسلطة في ذات الوطن والمكان.

إلا أن مشروع الكليم موسى عليه السلام لما لم يكن فقط مشروع حكم وسلطة بل صناعة أمة تحمل على عاتقها رسالة السماء ﴿**قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[1].

من هنا كانت الخطوة الأولى لميلاد المجتمع الإسرائيلي هي الهجرة ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ الله أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ**

١ - سورة الأعراف، آية ١٢٩.

﴿لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1].

لتُبنى من خلال هذه الهجرة وفق ميزان الرسالة، وهذا يعني أن يدخل هذا المجتمع في أتون المحن والابتلاءات حتى يؤهل لحمل شرف الرسالة من هنا نجد أن هذه الأمة ما إن تخلصت من أغلال العبودية التي كابدتها في عصر فرعون حتى دخلت في سلسلة من الاختبارات -وقد أشارت إلى بعضها الآيات السابقة- لتثبت من خلالها مقدرتها على حمل وسام التفضيل ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

والملفت أن القرآن الحكيم كرر هذا المشهد على مسامع المسلمين في أكثر من مناسبة، والسر في ذلك أن طبيعة تكون الأمة الإسلامية وإرهاصات ولادتها تشابه إلى حد كبير التجربة الإسرائيلية.

فقد هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة وكوّن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها مجتمع الإيمان والصلاح، وحرّي بالأمة المسلمة التي أنيطت بها مهام الرسالة أن تدرس طبيعة الامتحانات التي مرّت بها أمة بني إسرائيل وتتعرف على مواطن الضعف والخلل حتى لا تقع فريسة الأخطاء والتجاوزات التي وقعت فيها الأمة الإسرائيلية.

٢- الصبر رأس مال الشعوب:

هناك فريق من البشر يريد أن يتخطى سنن الله وقوانينه في

١- سورة الأعراف، آية ١٣٨ - ١٤٢.

٢- سورة البقرة، آية ٤٨.

الحياة، فتراه يسعى لتحقيق أهدافه وغاياته مسقطاً من حساباته عنصر الزمن.

فيريد نصراً بلا ثمن ونجاحاً بلا عناء وفلاحاً بلا عمل. أترى يمكن أن تنال أمة حريتها بلا صبر وتحمل؟

بعض المتصدين لشؤون العمل تسوقهم العجلة لاقتطاف الثمرة مما حدا ببعضهم أن يغامر بشعبه وأمته في رهانات خاسرة.

إن الله عزّ وجلّ في خلقه لهذا الوجود أرشد البشر إلى إدراك عنصر الزمن وضرورته (مع أنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون) فخلق الإنسان خلقاً بعد خلق ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾[1].

وخلق الكون في ستة أيام ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾[2].

هكذا أراد المولى أن ندرك حقيقة الحياة وأن الزمن دخيل في صنع الكائنات، فكيف بصناعة الأمم والمجتمعات؟

١- سورة الحج، آية ٥.

٢- سورة الأعراف، آية ٥٤.

فكما أن آلام الولادة وما يصاحبها من عنت وضيق هي بشائر الأمل والفرج بالمولود الجديد.

كذلك هي حال الشعوب والأمم، فإن بطش الحكام وتجبر الطغاة وما يصاحبها من قتل وتشريد هي بشائر أمل لنهاية حكمهم، ذلك بأن الحكام عندما يُعمِلوا سكين القهر والقتل في شعوبهم يكشف هذا أنهم قد استنفدوا كافة الوسائل والأساليب لقيادة هذه الشعوب وترويضها ولم يبق إلا هذا السلاح (القتل والتشريد)، فهنا تبرز المعادلة الأكبر التي طالما أكدت عليها الآيات القرآنية وهي صراع الإرادات.

بين إرادة أمة تسلحت بالاستعانة والصبر وإرادة حكام فقدوا كل وسائل القيادة ولم يبق عندهم إلا سلاح القتل والذبح.

فإذا أدركت الأمم هذه الحقيقة فصبرت واستعانت بخالقها حُفظ السلاح الأخير من يد جلاديها.

ولعل تَقْدِمة القرآن الحديث عن السحرة قبل الحديث عن مشروع المواجهة بين المجتمع الإسرائيلي وآل فرعون هو من أجل ترسيخ هذه الحقيقة.

﴿قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]، فكان جوابهم:

١- سورة الأعراف، آية ١٢١ - ١٢٤.

﴿قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[1]، فكان سلاحهم ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2]، وبعد أن يسوق القرآن هذا النموذج الراقي من المواجهة المعتمد على ركيزتي الاستعانة والصبر يعطف الحديث على المجتمع الإسرائيلي ومعركته مع آل فرعون.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

فمشروع وراثة الأرض والتمكن فيها مرهون بمدى تحمل وصبر المجتمع الإسرائيلي، وهو الكفيل بنقل هذا المجتمع من عالم العبودية إلى رحاب الحرية.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾[4].

فهذه الآية بينت بوضوح لا لبس فيه أن مشروع الحرية وتحقق الكلمة الربانية كان مَوقوفاً على صبر وتحمل المجتمع الإسرائيلي.

٣- القدرة الربانية:

١- سورة الأعراف، آية ١٢٥.
٢- سورة الأعراف، آية ١٢٦.
٣- سورة الأعراف، آية ١٢٧ - ١٢٨.
٤- سورة الأعراف، آية ١٣٧.

لقد كان للمعجزة دورها الكبير والحاسم في خلاص بني إسرائيل من جبروت فرعون وسطوته، فكان الكليم موسى عليه السلام يوجه المجتمع الإسرائيلي إلى التذكر والتمسك بقدرة الله عزّ وجلّ: ﴿**قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[1].

وهذه القضية كانت ترافق جهود كافة الأنبياء عليهم السلام فما من نبي إلا وزوده الله بمعجزة.

إلا أننا هنا في معركة الحرية بين المجتمع الإسرائيلي وآل فرعون نشهد مساحة أوسع لتجلي القدرة الربانية، فما هو السر في ذلك؟

لقد استطاع فرعون بطغيانه وجبروته أن يسوم المجتمع الإسرائيلي سوم العذاب ﴿**قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾[2]، فقام فرعون بمجموعة من الممارسات أفقدت الإنسان الإسرائيلي ثقته بالإصلاح والتغيير وأمله في الحرية ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[3]،وتخيل الإسرائيليون أن لا قوة ولا قدرة قادرة على لجم طغيان فرعون وتجبره، وأن محاولات الخلاص كلها باءت بالفشل، فكان هذا المجتمع بحاجة أن يُكْسَرَ صنمُ فرعون في نفوسهم، وهذا الذي نلمسه من خلال العرض القرآني لمشهد الحرية، ففي كل مقطع من هذه الحادثة كان المراد منه إزالة وهم

١- سورة الأعراف، آية ١٢٩.

٢- سورة الأعراف، آية ١٢٧.

٣- سورة الأعراف، آية ١٢٩.

القدرة الفرعونية من نفوسهم لتحل محلها القدرة الإلهية التي لا تحد ولا تقهر.

واستمرت هيمنة الأسطورة الفرعونية على نفوسهم حتى اللحظات الأخيرة من مشروع الإنقاذ فعندما طاردهم فرعون وجنده قال الإسرائيليون ﴿**فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾[1].

ومع ذلك لم تجد هذه الكلمة ﴿**كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ في نفوسهم الموقع الذي أراده، فكان لابد أن يعاينوا القدرة الإلهية بأم أعينهم لتسكن نفوسهم وتزول أوهامهم.

فكانت الخطوة الأخرى هي غرق آل فرعون بكل ما يملكون من قوة وقدرة، وحتى تقطع كل حبال الشك وتنتهي أسطورة الرجل الذي لا يقهر نلاحظ تعبيرين في الآيات القرآنية ﴿**وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾[2] ،﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**﴾[3].

ففي الفقرة الأولى لم يكن الهدف فقط إغراق فرعون وإنما نظر المجتمع الإسرائيلي لتوقن نفوسهم بنهاية الأسطورة.

ومن الفقرة الأخرى أراد الله عزّ وجلّ ألاَّ يتوهم أحد من الإسرائيليين أن فرعون لم يمت فمن المحتمل أنه خرج من البحر ونجا

١- سورة الشعراء، آية ٦١ - ٦٢.

٢- سورة البقرة، آية ٥٠.

٣- سورة يونس، آية ٩٢.

لذا الجثة الوحيدة التي طفت على الماء هي جثته.

واستكمالاً لإنهاء أسطورة قدرة فرعون عرض علينا القرآن لحظات الاستغاثة ﴿**حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1].

حتى يعلم الجميع أن لا قدرة أمام قدرة الله عزّ وجلّ حتى لو كانت بحجم قدرة فرعون وسطوته.

وفي الأخير: لابد من التذكير بحقيقة طالما أكدت عليها الآيات القرآنية ألا وهي أن مقدار تحمل الإنسان وجَلدِه (الصبر) هو الذي يساهم في حسم المعركة من خلال التدخل الرباني. فلاحظ قوله تعالى: ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾[2].

فالصبر والإمداد الغيبي عنصران مترابطان، فأرضية الإمداد هو الجلد والتحمل والصبر. وهذا الذي وجدناه من خلال قصة بني إسرائيل ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ**﴾[3].

١- سورة يونس، آية ٩٠ - ٩١.

٢- سورة آل عمران، آية ١٢٥.

٣- سورة الأعراف، آية ١٣٧.

الفهرس

هذه الدراسة ٧

قراءة في التحولات الحضارية عند بني إسرائيل ٩

التحولات الكبرى عند بني إسرائيل ١٤

بين ألواح موسى عليه السلام وعجل السامري: ١٤

بين هدى الكتاب وأوهام السحر: ١٥

عصيان الأوامر والتيه: ١٧

التحول الأخطر: ١٨

الدواعي والأسباب ٢٠

١ـ الميوعة في الالتزام بالتعاليم والأحكام الشرعية: ٢٠

٢ - نقص المواثيق الربَّانية: ٢١

التحولات النفسية أرضية التحولات الفكرية: ٢٣

سورة الجمعة ميلاد أمة، وموت أخرى..... ٢٥

الأمة الإسلامية ومحاولة النكوص ٢٦

نزعة التجسيم عند بني إسرائيل ٢٩
كتاب التاريخ ٣٠
مستوى الإنكار والرفض لنزعة التجسيم ٣٩
التجسيم الأرضية والواقع..... ٤١
الجهل مصدر الرذائل..... ٤٢
السامري ونزعة التجسيم..... ٤٣
بقايا ثقافة التجسيم في المجتمع الإسرائيلي..... ٤٤
بنو إسرائيل بين الرشد والسفه..... ٤٧

بنو إسرائيل ومشروع الحرية(رؤية قرآنية) ٤٩
بصائر الحرية في القرآن ٥١
١- منهجية البحث القرآني لمسألة الحرية: ٥١
الحقل الاجتماعي:..... ٥٤
الحقل الحقوقي: ٥٨
٣- الحرية بين الطاعة والفوضى: ٦٣
٣- الحرية والانتفاع بالحياة: ٦٦

٤- لا تفريط في الحرية: ٧٤
مشروع الحرية عند بني إسرائيل: ٧٧
١- مجتمع الأماني والأحلام: ٧٧
١- تحول هذه الفكرة (غياب المسؤولية) إلى ظاهرة في المجتمع الإسرائيلي بحيث أنها غدت تشكل السمة العامة لحركة المجتمع. ٧٨
٢- نسف القرآن لفكرة
الشفاعة في صورتها السلبية: ٧٩
منهجان لدراسة فكرة الشفاعة: ٨٠
٢- مجتمع الاستعباد: ٨١
يوم الحرية يوم الله: ٨٢
المجتمع الإسرائيلي بين التفضيل والمسؤولية: ٨٤
استجابة المجتمع الإسرائيلي لمشروع الحرية: ٨٥
ملامح مشروع الحرية ٨٧
١- الهجرة ميلاد أمة: ٨٧
٢- الصبر رأس مال الشعوب: ٨٨
٣- القدرة الربانية: ٩١